وجادلهم بالتي هي أحسن

الموقف الشرعي الصحيح من أهل الكتاب

هشام مصطفى عبد العزيز

وجادلهم بالتي هي أحسن

الموقف الشرعي الصحيح من أهل الكتاب

تأليف

هشام مصطفى عبد العزيز

الطبعة الأولى: (١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م).

رقم الإيداع القانوني بدار الكتب المصرية: (٢٤٣٤٤ / ٢٠٠٧م).

الترقيم الدولي (.I.S.P.N): (٠٢٢- ٦٢٣٨-٩٧٧-٩٧٨).

بطاقة الفهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة

لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

عبد العزيز، هشام مصطفى.

وجادلهم بالتي هي أحسن/ بقلم: هشام مصطفى عبد العزيز. الاسكندرية: دار الهدى للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م، (٩٦ صفحة)، (١٤*٢٠) سم.

ردمك: (٠٢٢-٦٢٣٨-٩٧٧-٩٧٨).

١- الأخلاق الإسلامية.

أ- العنوان (٢١٢).

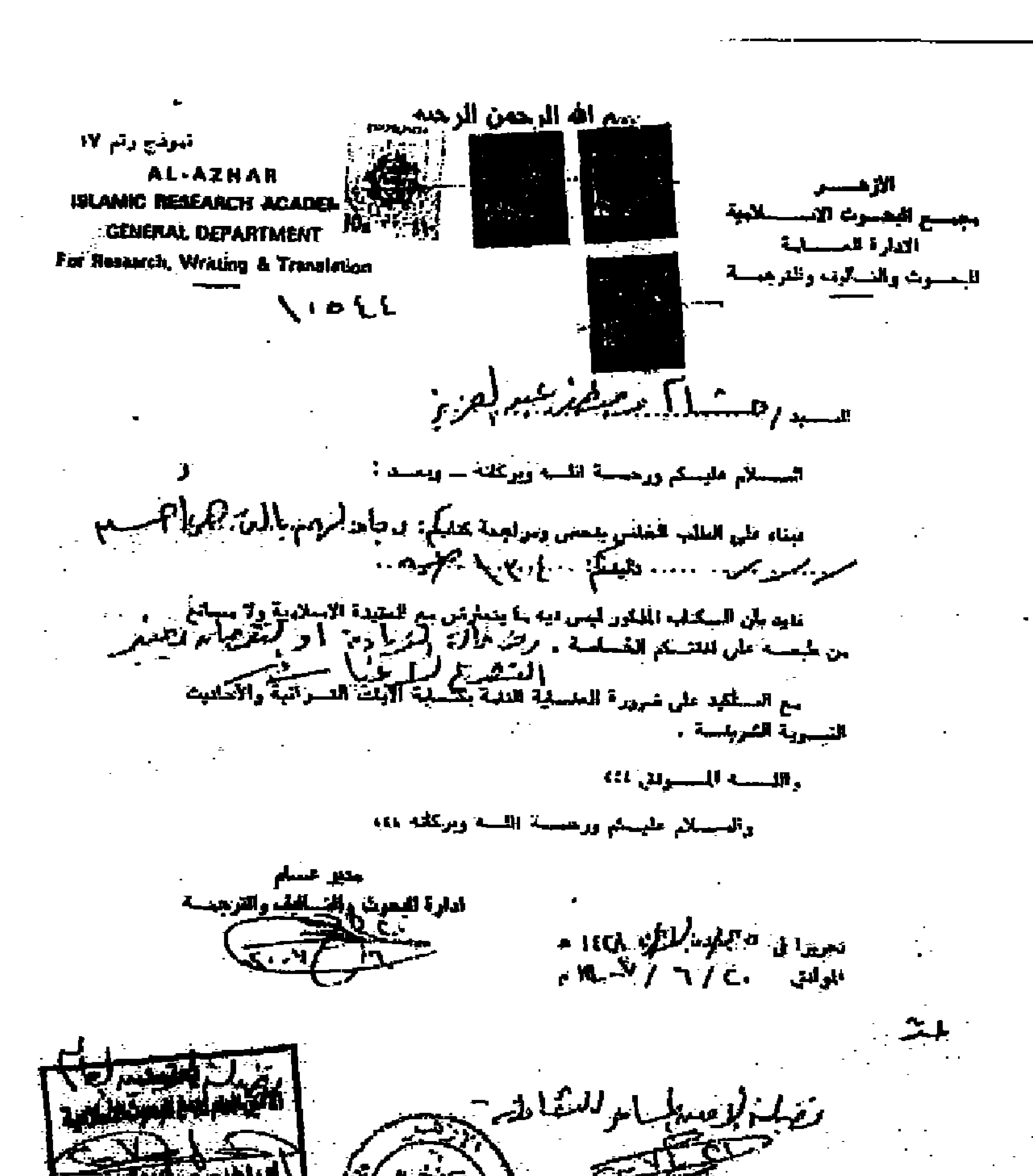


٢٦ شارع ٣١٤ تقسيم القضاة سموحة

الاسكندرية

www.dar-alhoda.com

ت: [illegible]



بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر
مجمع البحوث الإسلامية
الإدارة العامة
للبحوث والتأليف والترجمة

نموذج رقم ١٧
AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writing & Translation

١٥٤٤

السيد / ....

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته — وبعد :

بناء على الطلب المقدم بفحص ومراجعة كتاب : ....
.... تأليف : ....

نفيد بأن الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الإسلامية ولا مانع من طبعه على نفقتكم الخاصة .

مع التأكيد على ضرورة العناية التامة بكتابة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة .

والله الموفق ،،،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

مدير عام
إدارة البحوث والتأليف والترجمة

تحريراً في : .... ١٤٢٨ هـ
الموافق : ٢٠ / ٦ / ٢٠٠٧ م

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ
وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ ﴾

[سورة العنكبوت: ٤٦]

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾[النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد،

ففي ظل تلك الظروف العصيبة التي تمر بها أمتنا: من تكالب لأكلة الشرق والغرب على قصعة الإسلام، وسعي من قوى الشر في العالم، لمزيد من السيطرة والتحكم في بلاد المسلمين.

في هذا الوقت الحرج، والذي نحن فيه في أمس الحاجة إلى تماسك الصفوف، وتوحيد الجبهة الداخلية، وتضافر جميع الجهود؛ لصد تلك الهجمات الشرسة من أعداء الإسلام على ديار المسلمين، على كافة الأصعدة والمستويات، اندلعت أحداث مؤسفة بين المسلمين وجيرانهم من أهل الكتاب، على أرض مصر الحبيبة، ووقعت حوادث دامية، ما أنزل الله بها من سلطان، على يد بعض غير المسئولين من الفريقين.

وسواء كانت هذه الأحداث بتدبير من قوى خارجية خبيثة، أو بفعل بعض الجهلة المتهورين من داخل البلاد؛ فإن النتيجة في الحالتين واحدة، وهو ما كاد يؤدي إلى قيام فتنة شعواء يكتوي بنارها الجانبان، ويكون الخاسر الأكبر فيها هو هذا الوطن الحبيب، والرابح فيها هم أعداؤه، الذين ينتظرون أدنى ذريعة للتدخل في شئوننا، وفرض مزيد من السيطرة على مقدَّراتنا؛ لتحقيق أجندتهم الخاصة في أراضي المسلمين.

ولعل جانبًا كبيرًا من أسباب تلك الأحداث؛ إنما يكمن في الفهم الخاطئ للتصور الإسلامي الرشيد في معاملة أهل الكتاب، فلقد أصيبت هذه القضية بتشوه كبير في أوساط المسلمين، ما بين الإفراط والتفريط، والحق دائمًا وسط بين طرفين، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فمن طرف وجدنا بعض التصورات الخاطئة التي انتشرت بين أبناء المسلمين: من وجوب معاملة أهل الكتاب بالشدة والعنف، واعتبار احتقارهم وتعمد إذلالهم من الدين الذي يُتقرب به إلى الله تعالى، بل من لوازم صحة عقيدة الولاء للمؤمنين، والبراء من غيرهم.

مع أن المطالع لكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ وسيرته، ليعلم أن الأصل في معاملة أهل الكتاب في ديننا هو الرفق واللين، والرحمة والعدل والتسامح، كما قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة:٨].

وكم هي تلك المواقف الرائعة التي وردت عن رسولنا ﷺ، وعن سلفنا الصالح ﷺ، من تعامل مع أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وتسامح ورفق ولين، مما سيأتي معنا ذكره بين ثنايا هذا البحث، إن شاء الله تعالى.

وبإزاء هذا الطرف، وجدنا من يُفْرط في دعوى التسامح واللين، فيدخل فيه ما ليس منه، حتى يصل إلى درجة تمييع عقيدة الولاء والبراء، التي هي ركن ركين من أركان عقيدة التوحيد.

ولأجل ما ذكرنا من هذا الانحراف والشطط في فهم التصور الصحيح لشريعة الإسلام، في جانب معاملة أهل الكتاب، وما أدى إليه من أحداث مؤسفة، قد تُنذر بفتنة تحصد الأخضر واليابس؛ فكان لا بد من بيان الموقف الشرعي الصحيح في هذه القضية، حتى يفيء كل متجاوز لحدود الله إلى الحق، الذي هو شرع الله تعالى كما أنزله على رسوله ﷺ، بلا تعصب للأهواء، ولا تَقَوُّل على الله تعالى بغير علم، ولقد انتظم هذا البحث المختصر في الفصول الآتية:

الفصل الأول: سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين.

الفصل الثاني: الجدال بالتي هي أحسن.

الفصل الثالث: التصور الصحيح لعقيدة الولاء والبراء.

والله تعالى من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل

هشام مصطفى عبد العزيز

مساء الجمعة: ١٣ من ربيع الأول ١٤٢٨ هـ

الموافق: ٣ من مارس ٢٠٠٦ م

❁❁❁❁❁❁

الفصل الأول

سماحة الإسلام

في معاملة غير المسلمين

الفصل الأول

سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين[١]

وقبل الحديث عن دلائل سماحة الإسلام مع مخالفيه، نمهد لذلك بأمرين: بيان مدلول السماحة، ثم بيان ضابطها الشرعي؛ حتى لا تخرج بنا إلى إفراط أو تفريط.

أولاً: مدلول السماحة.

يتحدد مفهوم السماحة من خلال معرفة مدلولها اللغوي، حيث ذكر ابن فارس في معجم مقاييس اللغة أن: السين والميم والحاء أصل صحيح يدل على سلاسة وسهولة[٢]، والمسامحة: المساهلة[٣]، وفي الحديث قال ﷺ: ((**أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة**))[٤].

قال ابن حجر رحمه الله: (السمحة: السهلة، أي أنها مبنية على السهولة)[٥]، والسماحة تشمل أصول الدين وفروعه، وصورها لا تحصر، فعقيدة الإسلام سمحة، وشريعته سمحة، وتمتد صور السماحة إلى المعاملة، قال ﷺ: ((**رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى**))[٦].

وبوَّب البخاري رحمه الله للسماحة في هذا الحديث بالسهولة، فقال: **باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع.**

---

(١) للتوسع في هذا المبحث يراجع: سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين، د.إبراهيم بن عبد الله اللحيدان، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، د.يوسف القرضاوي.

(٢) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، (٣/ ٩٩).

(٣) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، (٢/ ٣٩٨).

(٤) رواه البخاري معلقًا، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد، (٢٨٧).

(٥) فتح الباري، ابن حجر، (١/ ٩٤).

(٦) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، (١٩٢٤).

قال ابن حجر رحمه الله: (وفي الحديث الحث على السماحة في المعاملة، واستعمال معالي الأخلاق، وترك المشاحة، والحض على ترك التضييق على الناس في المطالبة، وأخذ العفو منهم)[١].

ثانيا: ضابطها الشرعي.

السماحة لا تعني التساهل دون ضابط شرعي يحكمها، فهي مرتبطة بالنص، وعندما يخلط بعضهم بينها وبين التساهل المذموم؛ فقد يعيب البعض على الآخر، ظنًا منهم أن في السماحة تفريطًا بأصل الدين.

إن فهم مدلول السماحة ـ وأنها تعني السهولة والمسامحة ـ لا يعني بحال التفريط في شيء من أصول الدين أو فروعه، كما أن التفريط في فهم سماحة الإسلام وتطبيقها، قد يفضي إلى التشديد والتنفير من هذا الدين.

وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وفي الحديث عنه ﷺ: ((هلك المتنطعون))[٢]، قالها ثلاثًا، (والمتنطعون: المتعمقون المشددون في غير موضع التشديد)[٣].

فهذا الدين جاء ليضع الآصار والأغلال التي كانت على الأمم السابقة، وقد كان النبي ﷺ يأمر بالتيسير وينهى عن التعسير، فعن سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده: أن النبي ﷺ بعث معاذًا وأبا موسى إلى اليمن، فقال: ((يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا))[٤].

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، (٤/ ٢٠٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، (٤٨٢٣).

(٣) رياض الصالحين، النووي، (١/ ٢٦).

(٤) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، (٢٨١١).

والسماحة لا تعني الضعف، والإسلام يأبى الضيم، ويرفض لأتباعه الذل والهوان، والمؤمن عزيز بإيمانه وإسلامه قوي بهما، ومن يظنون السماحة والصفح والحلم والعفو ضعفًا؛ لا يدركون عظمة هذا الدين.

والسماحة كبقية المعاني العظيمة التي جاء بها الإسلام: كالوسطية والتيسير، والعدل والعفو، والصفح وغير ذلك، لها ضابطها الشرعي، الذي إن حادت عنه؛ كانت عقبة كؤودًا في فهم طبيعة الإسلام، وبعد أن بيَّنا مدلول السماحة وضابطها الشرعي، نأتي إلى بيت القصيد؛ ألا وهو:

روح التسامح الإسلامي مع غير المسلمين

إن دين الإسلام العظيم يقيم العلاقة بين أبنائه المسلمين وبين مواطنيهم من غير المسلمين، على أسس وطيدة من السماحة والعدالة والبر والرحمة.

وهي أسس لم تعرفها البشرية قبل الإسلام، وقد عاشت قرونًا بعد الإسلام وهي تقاسي الويل من فقدانها، ولا تزال إلى اليوم تتطلع إلى تحقيقها في المجتمعات الحديثة؛ فلا تكاد تصل إليها في مجتمع ما، وفي وقت ما، إلا غلب عليها الهوى والعصبية، وضيق الأفق والأنانية، وجرتها إلى صراع دامٍ مع المخالفين في الدين أو المذهب أو الجنس أو اللون.

وأساس هذه العلاقة مع غير المسلمين قوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة: ٨ - ٩].

فالبر والقسط مطلوبان من المسلم للناس جميعًا، ولو كانوا كفارًا بدينه، ما لم

يقفوا في وجهه ويحاربوا دعاته، ويضطهدوا أهله.

ولأهل الكتاب من بين غير المسلمين منزلة خاصة في المعاملة والتشريع، كما سيتضح معنا بين ثنايا هذا البحث إن شاء الله تعالى.

والمراد بأهل الكتاب: من قام دينهم في الأصل على كتاب سماوي، وإن حُرِّفَ وبُدِّلَ بعدُ: كاليهود والنصارى الذين قام دينهم على التوراة والإنجيل.

وتميزت شريعة الإسلام بروح السماحة مع غير المسلمين، والتي تبدو في حُسن المعاشرة، ولطف المعاملة، ورعاية الجوار، وسعة المشاعر الإنسانية من البر والرحمة والإحسان.

وهي الأمور التي تحتاج إليها الحياة اليومية، ولا يغني فيها قانون ولا قضاء، وهذه الروح لا تكاد توجد في غير المجتمع المسلم.

الأدلة الدامغة على روح التسامح الإسلامي

ونستعرض هنا بعض تلك الشواهد الواضحة، والأدلة المشرقة، التي تبين مدى ما تتمتع به شريعة الإسلام من تسامح، لاسيما مع أهل الكتاب، ويمكن أن نحاول حصر هذه الشواهد في ثلاثة جوانب:

الجانب الأول: حقوق أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي.

الجانب الثاني: تعاملات خاصة أباحها الله للمسلم مع أهل الكتاب.

الجانب الثالث: شواهد من السيرة وتاريخ المسلمين، وشهادات منصفي الغرب في ذلك.

الجانب الأول: حقوق أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي.

القاعدة الأولى في معاملة أهل الذمة في دار الإسلام أن لهم من الحقوق مثل ما للمسلمين، إلا في أمور محددة مستثناة، كما أن عليهم ما على المسلمين من الواجبات إلا ما استُثني؛ فمن هذه الحقوق:

الحق الأول: العدل والقسط.

فالعدل مع أهل الكتاب، ومعاملتهم بالقسط، وتجنب ظلمهم؛ أمر يوجبه الإسلام، ويشدد في وجوبه، ويحذر المسلمين أن يمدوا أيديهم أو ألسنتهم إلى أهل الذمة بأذى أو عدوان، فالله تعالى لا يحب الظالمين ولا يهديهم، بل يعاجلهم بعذابه في الدنيا، أو يؤخِّر لهم العقاب مضاعفًا في الآخرة.

وقد تكاثرت الآيات والأحاديث الواردة في تحريم الظلم وتقبيحه، وبيان آثاره الوخيمة في الدنيا والآخرة، وجاءت أحاديث خاصة تحذر من ظلم غير المسلمين من أهل العهد والذمة، قال الرسول ﷺ: ((**ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس؛ فأنا حجيجه يوم القيامة**))[1].

ولهذا كله اشتدَّت عناية المسلمين منذ عهد الخلفاء الراشدين بدفع الظلم عن أهل الذمة، وكف الأذى عنهم، والتحقيق في كل شكوى تأتي من قِبَلِهم.

(كان عمر ﷺ يسأل الوافدين عليه من الأقاليم عن حال أهل الذمة؛ خشية أن يكون أحد من المسلمين قد أفضى إليهم بأذى، فيقولون له: ما نعلم إلا وفاء)[2]، أي: بمقتضى العهد والعقد الذي بينهم وبين المسلمين، وهذا يقتضي أن كلا من الطرفين وفى بها عليه.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، (٣٠٥٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، (٢٦٥٤).

(٢) تاريخ الطبري، (٣/ ١٨٤).

وعليٌّ بن أبي طالب ﷺ يقول: (إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا، ودماؤهم كدمائنا)[١].

وفقهاء المسلمين من جميع المذاهب الاجتهادية صرَّحوا وأكدوا بأن على المسلمين دفع الظلم عن أهل الذمة والمحافظة عليهم؛ لأن المسلمين حين أعطوهم الذمة قد التزموا دفع الظلم عنهم، وهم صاروا بذلك من أهل دار الإسلام كما سنبين إن شاء الله تعالى، بل صرَّح بعضهم بأن ظلم الذمي أشد من ظلم المسلم إثما[٢].

نماذج وأمثلة لعدل المسلمين في معاملة أهل الكتاب.

من مفاخر النظام الإسلامي ما منحه من سُلطة واستقلال للقضاء؛ ففي رحاب القضاء الإسلامي الحق، يجد المظلوم والمغبون ـ أيًّا كان دينه وجنسه ـ الضمان والأمان لينتصف من ظالمه، ويأخذ حقه من غاصبه ولو كان هو أمير المؤمنين بهيبته وسلطانه.

وفي تاريخ القضاء الإسلامي أمثلة ووقائع كثيرة، وقف فيها السلطان أو الخليفة أمام القاضي مُدَّعيًا أو مُدَّعىً عليه، وفي كثير منها كان الحكم على الخليفة أو السلطان لصالح فرد من أفراد الشعب، لا حول له ولا طول، ونكتفي هنا بمثال واحد له دلالته الواضحة في موضوعنا.

(سقطت درع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ؛ فوجدها عند رجل نصراني، فاختصما إلى القاضي شريح، قال علي ﷺ: الدرع درعي، ولم أبع ولم أهب.

فسأل القاضي ذلك النصراني فيما يقول أمير المؤمنين، فقال النصراني: ما الدرع

---

(١) المغني، ابن قدامة، (٨/ ٤٤٥)، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، (٧/ ١١١)، نقلا عن أحكام الذميين والمستأمنين، عبد الكريم زيدان، ص(٨٩).

(٢) ذكر ذلك ابن عابدين في حاشيته، وهو مبني على أن الذمي في دار الإسلام أضعف شوكة عادة، وظلم القوي للضعيف أعظم في الإثم، راجع: حاشية ابن عابدين، (٤/ ٣٥١).

إلا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت شريح إلى علي ﷺ يسأله: يا أمير المؤمنين، هل لك من بيِّنة؟ فضحك علي ﷺ، وقال: أصاب شريح، ما لي بيِّنة.

وقضى شريح للنصراني بالدرع؛ لأنه صاحب اليد عليها، ولم تقم بينة عَليٍّ ﷺ بخلاف ذلك، فأخذها هذا الرجل ومضى، ولم يمش خطوات حتى عاد يقول: أما إني أشهد أن هذه أحكام أنبياء! أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه؛ فيقضي لي عليه! أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، الدرع درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق من صفين، فخرجت من بعيرك الأورق، فقال علي ﷺ: أما إذ أسلمت فهي لك)[1]، وهي واقعة تغني عن كل تعليق.

والتاريخ الإسلامي مليء بالوقائع التي تدل على التزام المجتمع الإسلامي بحماية أهل الذمة من كل ظلم يمس حقوقهم المقررة، أو حرماتهم المصونة، أو حرياتهم المكفولة، وأشهر الأمثلة على ذلك قصة القبطي مع عمرو بن العاص والي مصر.

(حيث ضرب ابنُ عمرو ابنَ القبطي بالسوط، وقال له: أنا ابن الأكرمين! فما كان من القبطي إلا أن ذهب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في المدينة، وشكا إليه، فاستدعى الخليفةُ عمرو بن العاص وابنه، وأعطى السوط لابن القبطي وقال له: اضرب ابن الأكرمين.

فلما انتهى من ضربه التفت إليه عمر، وقال له: أدرها على صلعة عمرو؛ فإنما ضربك بسلطانه، فقال القبطي: إنما ضربتُ مَن ضربني، ثم التفت عمر إلى عمرو، وقال كلمته الشهيرة: يا عمرو، متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟)[2].

ومما يستحق التسجيل في هذه القصة: أن الناس قد شعروا بكرامتهم وإنسانيتهم

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، (٨/ ٤-٥).

(٢) نقلًا عن فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، د.علي محمد الصلابي، ص(١٢٨)، بتصرف يسير.

في ظل الإسلام، حتى إن لطمة يُلطَمها أحدهم بغير حق؛ يستنكرها ويستقبحها.

وقد كانت تقع آلاف مثل هذه الحادثة وما هو أكبر منها في عهد الرومان وغيرهم، فلا يحرك بها أحد رأسًا، ولكن شعور الفرد بحقه وكرامته في كنف الدولة الإسلامية جعل المظلوم يركب المشاق، ويتجشم وعثاء السفر الطويل من مصر إلى المدينة المنوَّرة، واثقًا بأن حقه لن يضيع، وأن شكاته ستجد أذنًا صاغية.

الحق الثاني: الأمن والأمان.

فقد كفلت شريعة الإسلام لأهل الكتاب أقصى درجات الأمن والأمان، التي يحلم أن يتمتع بها أي إنسان، بحيث يعيشون في ظلال المجتمع المسلم آمنين مطمئنين على أرواحهم وأنفسهم، وأهليهم وأعراضهم وأموالهم؛ وفيما يلي تفصيل لبعض جوانب هذا الأمن:

أولًا: الأمن على الدماء والأبدان.

فدماؤهم وأنفسهم معصومة باتفاق المسلمين، وقتلهم حرام بالإجماع؛ يقول الرسول ﷺ: ((**من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا**))[1].

ولهذا أجمع فقهاء الإسلام على أن قتل الذمي كبيرة من كبائر المحرمات؛ وذلك للوعيد الوارد في هذا الحديث، وكما حمى الإسلام أنفس أهل الذمة من القتل؛ حمى أبدانهم من الضرب والتعذيب؛ فلا يجوز إلحاق الأذى بأجسامهم ولو تأخروا أو امتنعوا عن أداء الواجبات المالية المقررة عليهم؛ كالجزية والخراج، هذا مع أن الإسلام تشدد كل التشدد مع المسلمين إذا منعوا الزكاة.

ولم يُجِز الفقهاء في أمر الذميين المانعين أكثر من أن يُحبَسوا تأديبًا لهم، بدون أن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم، (٢٩٣٠).

يصحب الحبس أي تعذيب أو أشغال شاقة.

وروى مسلم في صحيحه أن هشام بن حكيم بن حزام مر على أناس من الأنباط[1] بالشام قد أقيموا في الشمس فقال ما شأنهم؟ قالوا: حبسوا في الجزية، فقال هشام: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((**إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا**))[2].

(وكتب عليٌّ ﷺ إلى بعض ولاته على الخراج: إذا قدمتَ عليهم فلا تبيعن لهم كسوة، شتاء ولا صيفًا، ولا رزقًا يأكلونه، ولا دابة يعملون عليها، ولا تضربن أحدًا منهم سوطًا واحدًا في درهم، ولا تقمه على رجله في طلب درهم، ولا تبع لأحد منهم عَرضًا ـ أي: متاعًا ـ في شيء من الخراج، فإنما أُمِرنا أن نأخذ منهم العفو، فإن أنت خالفتَ ما أمرتك به؛ يأخذك الله به دوني، وإن بلغني عنك خلاف ذلك عزلتك.

قال الوالي: إذًا أرجع إليك كما خرجت من عندك! ـ يعني أن الناس لا يَدفعون إلا بالشدة ـ قال: وإن رجعتَ كما ذهبتَ)[3].

ثانيًا: الأمن على الأموال.

ومثل حماية الأنفس والأبدان حماية الأموال؛ هذا مما اتفق عليه المسلمون في جميع المذاهب، وفي جميع الأقطار، ومختلف العصور.

جاء في عهد عمر ﷺ إلى أبي عبيدة بن الجراح ﷺ أن: (امنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم، وأكل أموالهم إلا بحلها)[4].

وقد مرَّ بنا قول علي ﷺ: (إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا، ودماؤهم

(١) الأنباط جمع نبط وهم فلاحو العجم، انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، (٨/ ٤٤٣).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق، (٤٧٣٤).

(٣) الخراج، أبو يوسف، ص(١٥-١٦)، السنن الكبرى، البيهقي، (٩/ ٢٠٥).

(٤) نقلًا عن غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، د.يوسف القرضاوي، ص(١٥).

كدمائنا)[١]، وعلى هذا استقر عمل المسلمين طوال العصور، فمَن سرق مال ذمي قُطعت يده، ومَن غصبه عُزِّر، وأعيد المال إلى صاحبه.

ومَن استدان من ذمي فعليه أن يقضي دينه، فإنْ مَطَله وهو غني؛ حبسه الحاكم حتى يؤدي ما عليه، شأنه في ذلك شأن المسلم ولا فرق[٢].

ثالثًا: الأمن على الأعراض.

ويحمي الإسلام عرض الذمي وكرامته، كما يحمي عرض المسلم وكرامته، فلا يجوز لأحد أن يسبه، أو يتهمه بالباطل، أو يشنع عليه بالكذب، أو يغتابه، أو يذكره بما يكره في نفسه، أو نسبه، أو خَلْقِه، أو خُلُقه أو غير ذلك مما يتعلق به.

يقول الفقيه الأصولي المالكي شهاب الدين القرافي: (إن عقد الذمة يوجب حقوقًا علينا لهم، لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا ـ حمايتنا ـ وذمة الله تعالى، وذمة رسول الله ﷺ، ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء، أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك؛ فقد ضيَّع ذمة الله، وذمة رسوله ﷺ، وذمة دين الإسلام)[٣].

رابعًا: الأمن عند العجز والشيخوخة.

وأكثر من ذلك أن الإسلام ضمن لغير المسلمين في ظل دولته؛ كفالة المعيشة الملائمة لهم ولمن يعولونهم؛ لأنهم رعية للدولة المسلمة وهي مسئولة عن كل رعاياها؛ قال رسول الله ﷺ: ((**كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته**))[٤].

---

(١) المغني، ابن قدامة، (٨/ ٤٤٥)، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني، (٧/ ١١١)، نقلاً عن أحكام الذميين والمستأمنين، عبد الكريم زيدان، ص(٨٩).

(٢) راجع في ذلك أحكام القرآن، الجصاص، (٢/ ٤٣٦)، الأشباه والنظائر، السيوطي، ص(٢٥٤).

(٣) أنوار البروق في أنواع الفروق، القرافي، (٤/ ٣٩٨).

(٤) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، (٨٤٤).

وهذا ما مضت به سُنَّة الراشدين ومن بعدهم:

في خلافة أبي بكر ﷺ كتب خالد بن الوليد ﷺ في عقد الذمة لأهل الحيرة بالعراق ـ وكانوا من النصارى ـ: (وجعلت لهم أيُّما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيًا فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه؛ طرحت جزيته، وعِيل من بيت مال المسلمين وعياله)[1].

(وفي خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله، كتب إلى عدي بن أرطأة: وانظر من قبلك من أهل الذمة؛ قد كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب؛ فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه)[2].

(وهذا لون من السماحة في المعاملة والعدل الذي لا يعرف له وجود إلا في الإسلام؛ لأنه قائم على احترام الإنسانية ومعرفة حقوقها)[3].

إن الذين يسعون إلى تقرير التكافل الاجتماعي، وبيان صوره لن يجدوا أعظم من هذه الصور في تعامل الإسلام مع مخالفيه.

فهو يتسامى بمن يعيشون في كنفه، ويحوطهم برحمته وإحسانه عندما يحتاجون إلى مواساة لأي سبب من الأسباب، بل يجعلهم عيالًا على بيت مال المسلمين، ويعطي لهم منه أيًا كانت ديانتهم.

(إن التكافل الاجتماعي في الإسلام لا يرضى أن يذل رجل من أهل الذمة وهو يحيا في كنف الإسلام؛ فيعيش على الصدقة يتكفف الناس، ولكن الإسلام يحميه ويكرمه ويوجب على الدولة أن تعوله وتعول عياله)[4].

---

(١) كتاب الخراج، أبو يوسف، ص(١٤٤).

(٢) كتاب الأموال، أبو عبيد، ص(٥٧).

(٣) الموسوعة في سماحة الإسلام، محمد الصادق عرجون، (١/ ٢١١).

(٤) الموسوعة في سماحة الإسلام، محمد الصادق عرجون، (١/ ٤٤٦).

وبهذا تقرر الضمان الاجتماعي في الإسلام، باعتباره مبدأ عامًّا يشمل أبناء المجتمع جميعًا، مسلمين وغير مسلمين، ولا يجوز أن يبقى في المجتمع المسلم إنسان محروم من الطعام أو الكسوة أو المأوى أو العلاج، فإن دَفْعَ الضرر عنه واجب ديني، مسلما كان أو ذميًا.

وذكر الإمام النووي في المنهاج أن من فروض الكفاية: (دفع ضرر المسلمين ككسوة عار، أو إطعام جائع إذا لم يندفع بزكاة وبيت مال)[١].

ووضح العلامة شمس الدين الرملي الشافعي في نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج أن أهل الذمة كالمسلمين في ذلك؛ فدفع الضرر عنهم واجب[٢]، ثم بحث الشيخ الرملي رحمه الله في تحديد معنى دفع الضرر؛ فقال: (وهل المراد بدفع ضرر من ذكر، ما يسد الرمق أو الكفاية؟ قولان، أصحهما ثانيهما.

فيجب في الكسوة ما يستر كل البدن على حسب ما يليق بالحال من شتاء وصيف، ويلحق بالطعام والكسوة ما في معناهما، كأجرة طبيب، وثمن دواء، وخادم منقطع ... كما هو واضح، قال: ومما يندفع به ضرر المسلمين والذميين فك أسراهم)[٣].

خامسًا: الأمن من العدوان الخارجي.

أما الحماية من الاعتداء الخارجي، فيجب لهم ما يجب للمسلمين، وعلى الإمام أو ولي الأمر في المسلمين، بما له من سلطة شرعية، وما لديه من قوة عسكرية، أن يوفر لهم هذه الحماية.

قال الرحيباني في مطالب أولي النهى ـ من كتب الحنابلة ـ: (يجب على الإمام حفظ أهل الذمة، ومنع من يؤذيهم، وفك أسراهم، ودفع من قصدهم بأذى إن لم يكونوا بدار حرب، وحرم قتلهم وأخذ مالهم ولو انفردوا ببلد، ولو شرطنا أن

---

(١) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي، (٨/ ٤٦).

(٢) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي، (٨/ ٤٦).

(٣) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي، (٨/ ٤٦).

لا نذب عنهم لم يصح)[1].

وعلل ذلك بأنهم: (جرت عليهم أحكام الإسلام وتأيّد عقدهم، فلزمه ذلك كما يلزمه للمسلمين)[2].

وينقل الإمام القرافي المالكي رحمه الله في كتابه أنوار البروق في أنواع الفروق قول الإمام الظاهري ابن حزم رحمه الله في كتابه مراتب الإجماع: (إن من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك، صونًا لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة، وحكى في ذلك إجماع الأمة، فعقد يؤدي إلى إتلاف النفوس والأموال ـ صونًا لمقتضاه عن الضياع ـ إنه لعظيم)[3].

الحق الثالث: الحرية.

ومن أعظم هذه الحقوق التي كفلها الشرع الحنيف لأهل الكتاب هو حق الحرية؛ فهي حرية واسعة تشمل جوانب عديدة؛ فمنها على سبيل المثال:

أولًا: حرية التدين.

وأول هذه الحريات: حرية الاعتقاد والتعبد، فلكل ذي دين سماوي دينه ومذهبه، لا يُجبَر على تركه إلى غيره، ولا يُضغط عليه ليتحول منه إلى الإسلام، وأساس هذا الحق قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

قال ابن كثير في تفسير الآية الأولى: (أي لا تُكرِهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بَيِّن واضح، جليٌّ دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد

(١) مطالب أولي النهى، الرحيباني، (٢/ ٦٠٢-٦٠٣).

(٢) مطالب أولي النهى، الرحيباني، (٢/ ٦٠٢-٦٠٣).

(٣) أنوار البروق في أنواع الفروق، القرافي، (٤/ ٣٩٨-٣٩٩).

على الدخول فيه)[١].

وسبب نزول الآية - كما ذكر المفسرون - يبين جانبًا من إعجاز هذا الدين، فقد رووا (عن ابن عباس ﷺ قال: كانت المرأة تكون مقلاة [قليلة النسل] فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد؛ أن تُهَوِّدَه [كان يفعل ذلك نساء الأنصار في الجاهلية]، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار؛ فقال آباؤهم: لا ندع أبناءنا؛ فأنزل الله ﷻ هذه الآية: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾.

فرغم أن محاولات الإكراه كانت من آباء يريدون حماية أبنائهم من التبعية لأعدائهم المحاربين الذين يخالفونهم في دينهم وعقيدتهم، ورغم الظروف الخاصة التي دخل بها الأبناء دين اليهودية وهم صغار.

ورغم ما كان يسود العالم كله حينذاك من موجات الاضطهاد للمخالفين في المذهب فضلًا عن الدين؛ كما كان في مذهب الدولة الرومانية التي خيَّرت رعاياها حينًا بين التنصر والقتل، فلما تبنت المذهب الملكاني؛ أقامت المذابح لكل من لا يدين به من المسيحيين من اليعاقبة وغيرهم[٣].

رغم كل هذا، رفض القرآن الإكراه، بل من هداه الله وشرح صدره ونوَّر بصيرته؛ دخل فيه على بيِّنة، ومَن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره؛ فإنه لا يفيده الدخول في الدين مُكرَهًا مقسورًا؛ كما قال ابن كثير[٤].

فالإيمان عند المسلمين ليس مجرد كلمة تُلفظ باللسان، أو طقوس تُؤدَّى بالأبدان، بل أساسه إقرار القلب وإذعانه وتسليمه، ولهذا لم يعرف التاريخ شعبًا مسلمًا حاول إجبار أهل الذمة على الإسلام؛ كما أقر بذلك المؤرخون الغربيون أنفسهم.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (١/ ٣١٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (١/ ٣١٠).
(٣) انظر للتوسع: محاضرات في النصرانية، د.محمد أبو زهرة.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (١/ ٣١٠).

(فعبر تاريخ دولة الإسلام كان يعيش في داخلها غير المسلمين في مراحل قوتها وضعفها؛ فلم يُجبروا على ترك معتقداتهم، أو يُكرهوا على الدخول في الإسلام، والقاعدة العظمى في الإسلام أن لا إكراه في الدين؛ ولذا فقد عاش الذميون وغيرهم في كنف دولة الإسلام دون أن يتعرض أحد لعقائدهم ودياناتهم)(١).

(إن الإسلام لم يقم على اضطهاد مخالفيه، أو مصادرة حقوقهم، أو تحويلهم بالكره عن عقائدهم، أو المساس الجائر لأموالهم وأعراضهم ودمائهم، وتاريخ الإسلام في هذا المجال أنصع تاريخ على وجه الأرض)(٢).

ومن المقرر عند الفقهاء أنه لو أُكره أحد على الإسلام فإنه لا يصح إسلامه؛ قال ابن قدامة رحمه الله في المغني: (وإذا أُكرِه على الإسلام من لا يجوز إكراهه؛ كالذمي والمستأمن، فأسلم؛ لم يثبت له حكمُ الإسلام حتى يوجد منه ما يدل على إسلامه طوعًا)(٣).

ولذلك فإنه إذا عاد إلى دينه بعد زوال الإكراه لم يحكم بردته، ولا يجوز قتله ولا إكراهه على الإسلام، ونقل ابن قدامة رحمه الله إجماع أهل العلم على أن الذمي إذا أقام على ما عوهد عليه والمستأمن؛ لا يجوز نقض عهده ولا إكراهه على ما لم يلتزمه(٤).

وفي عهد عمر بن الخطاب إلى أهل إيلياء [القدس] نصَّ على حُريتهم الدينية، وحرمة معابدهم وشعائرهم؛ فقال ﷺ: (هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان؛ أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا ينتقص

(١) تلبيس مردود في قضايا حية، صالح بن حميد، ص(٣٠).
(٢) التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، محمد الغزالي، ص(٦).
(٣) المغني، ابن قدامة، (١٢/ ٢٩١).
(٤) المغني، ابن قدامة، (١٢/ ٢٩١-٢٩٢).

منها، ولا من حيزها ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود)[1].

وهذا التسامح مع المخالفين في الدين من قوم قامت حياتهم كلها على الدين، وتم لهم به النصر والغلبة، أمر لم يُعهد في تاريخ الديانات، وهذا ما شهد به الغربيون أنفسهم.

يقول جوستاف لوبون: (رأينا من آي القرآن التي ذكرناها آنفًا أن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، وأنه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله: كاليهودية والنصرانية على وجه الخصوص، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنته، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوروبا المرتابين أو المؤمنين القليلين الذين أمعنوا النظر في تاريخ العرب...

قال روبرتسن في كتابه تاريخ شارلكن: إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى.

وأنهم مع امتشاقهم الحسام نشرًا لدينهم، تركوا مَن لم يرغبوا فيه أحرارًا في التمسك بتعاليمهم الدينية)[2].

ثانيًا: حرية العمل والكسب.

فلغير المسلمين حرية العمل والكسب، بالتعاقد مع غيرهم، أو بالعمل لحساب أنفسهم، ومزاولة ما يختارون من المهن الحرة، ومباشرة ما يريدون من ألوان النشاط الاقتصادي، شأنهم في ذلك شأن المسلمين.

فقد قرر الفقهاء أن أهل الذمة في البيوع والتجارات وسائر العقود والمعاملات

---

(١) تاريخ الطبري، (٣/ ١٠٥).

(٢) حضارة العرب، جوستاف لوبون، ص(١٢٨).

المالية كالمسلمين، إلا أنه يمنع أهل الذمة من بيع الخمور والخنازير في أمصار المسلمين، وفتح الحانات فيها لشرب الخمر، أو تداولها أو إدخالها إلى أمصار المسلمين على وجه الشهرة والظهور، ولو كان ذلك لاستمتاعهم الخاص، سدًّا لذريعة الفساد وإغلاقًا لباب الفتنة.

وفيما عدا هذه الأمور المحدودة، يتمتع الذميون بتمام حريتهم، في مباشرة التجارات والصناعات والحِرَف المختلفة، وهذا ما جرى عليه الأمر، ونطق به تاريخ المسلمين في شَتَّى الأزمان.

وكادت بعض المهن تكون مقصورة عليهم كالصيرفة والصيدلة وغيرها، واستمر ذلك إلى وقت قريب في كثير من بلاد الإسلام، وقد جمعوا من وراء ذلك ثروات طائلة معفاة من الزكاة ومن كل ضريبة إلا الجزية، وهي ضريبة على الأشخاص القادرين على حمل السلاح، وهي مقدار جد زهيد.

قال آدم ميتز: (ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال، وكانت قدمهم راسخة في الصنائع التي تدر الأرباح الوافرة، فكانوا صيارفة وتجارًا وأصحاب ضياع وأطباء.

بل إن أهل الذمة نظَّموا أنفسهم، بحيث كان معظم الصيارفة الجهابذة في الشام مثلًا يهودًا، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى)[1].

الجانب الثاني: تعاملات مميزة أباحها الشرع مع أهل الكتاب.

ومن أبرز تلك الجوانب التي تدل على سماحة الإسلام مع أهل الكتاب، ما أباحه الله تعالى من تعاملات خاصة مميزة للمسلم معهم، سَوَّى الله تبارك وتعالى فيها بين المسلم والكتابي، فمن هذه التعاملات:

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، للأستاذ آدم ميتز، أستاذ اللغات الشرقية بجامعة (بازل) بسويسرا، (١/ ٨٦).

نكاح الكتابيات وحِلّ طعامهم.

أباح الإسلام نكاح نساء أهل الكتاب وأكل طعامهم، لإقامة علاقات المودَّة ووشائج الرحمة في المجتمع، قال ﷻ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾[المائدة: ٥].

وقد أباح الله تعالى طعام أهل الكتاب، ما عدا ما نصَّت عليه الآية التالية من سورة المائدة نفسها، قال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[المائدة: ٣].

ولا يُباح كذلك كل ما أسكر من شرابهم، وما عدا ذلك فقد أباحه الله ﷻ للمسلمين، حتى تقوم الألفة في المجتمع بين المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، كما يُباح لأهل الكتاب طعام المسلمين كله.

وأباح الله ﷻ نكاح العفيفات من المؤمنات، والمحصنات العفيفات من أهل الكتاب، نكاحًا شرعيًّا بصداق وإيجاب وقبول وولي، فلهن أجورهن [أي صداقهن]، ولا يُتَّخذن خليلات [أي صديقات]، أو مسافحات [أي زانيات]، والنكاح يوجب الود.

قال ﷻ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم: ٢١].

قال الإمام القرطبي رحمه الله في قوله ﷻ: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [المائدة:]، (هو على العهد دون دار الحرب، فيكون خاصًا)[١].

إذ لا يتصوَّر قيام حالات زواج من كتابية محاربة وأهلها محاربون للمسلمين، والناس في حالة حرب، فإذا انتهت الحرب بموادعة جاز الزواج، وأما أهل الذمة المقيمون بين ظهراني المسلمين فلا شك في جواز التزوُّج منهن.

(قال ابن عباس ﷺ: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ ﴾ العفيفات العاقلات. وقال الشعبي: هو أن تحصن فرجها فلا تزني، وقرأ الشعبي: ﴿ والمحصِنات ﴾ بكسر الصاد، وقال مجاهد: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ ﴾ الحرائر)[٢].

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية: ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ (قال ابن عباس، وأبو أمامة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء، والحسن، ومكحول، وإبراهيم النخعي، والسدي، ومقاتل بن حيان: يعني ذبائحهم.

وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن ذبائحهم حلال للمسلمين؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزَّه عنه تعالى وتقدَّس)[٣].

ثم ذكر ابن كثير قصة (اليهودية التي ناولته ﷺ ذراعًا مسمومة، فتناوله، فنهش منه نهشة، فأخبره الذراع أنه مسمومٌ، فلفظه رسول الله ﷺ، وأكل معه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (٦/ ٧٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (٦/ ٧٩).
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (١/ ٢٧١).

منها بشر بن البراء بن معرور فمات، وكان قد عفا عن اليهودية من أهل خيبر التي سمَّته، فلمَّا مات بشر بن البراء قادها به)[١].

(وقوله: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي: وأُحِلَّ لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات، وذكر هذا توطئة لما بعده وهو قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ فقيل: أراد بالمحصنات: الحرائر دون الإماء، وقيل: المحصنة هي العفيفة عن الزنى، وأكَّدها قوله تعالى: ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾

وقيل المراد بذلك الذميات [أي أهل الذمة] دون الحربيَّات، ولما نزلت هذه الآية تزوَّج جماعة من الصحابة من نساء النصارى، ولم يروا بذلك بأسًا، أخذًا بهذه الآية الكريمة: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾

فجعلوا هذه مخصصة للتي في سورة البقرة: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ [البقرة: ٢٢١])[٢].

(وقد انفصل أهل الكتاب في ذكرهم عن المشركين في غير موضع، واشترط لذلك المهر لهن، مثلما يُفرض المهر للمسلمة العفيفة)[٣].

زواج النبي ﷺ من جويرية بنت الحارث.

قام النبي ﷺ بغزوة المريسيع التي يُقال لها أيضًا: غزوة بني المصطلق، وهم بطن من خزاعة في السنة الخامسة للهجرة. فانهزم بنو المصطلق، ووقعت جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار رئيس بني المصطلق في السبايا، وكانت من نصيب ثابت بن قيس بن الشماس، فكاتبته على نفسها [أي بمبلغ من المال ليعتقها].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (١/ ٢٧٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (١/ ٢٧٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (١/ ٢٧٤).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: وقعت جويرية بنت الحارث بن المصطلق في سهم ثابت بن قيس بن شماس أو ابن عم له، فكاتبت على نفسها، وكانت امرأة مَلاحة تأخذها العين.

قالت عائشة رضي الله عنها: فجاءت تسأل رسول الله ﷺ في كتابتها، فلما قامت على الباب فرأيتها؛ كرهت مكانها، وعرفت أن رسول الله ﷺ سيرى منها مثل الذي رأيت، فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث، وإنما كان من أمري ما لا يخفى عليك، وإني وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، وإني كاتبت على نفسي، فجئتك أسألك في كتابتي.

قال: ((فهل لك إلى ما هو خير منه ؟)).

قالت: وما هو يا رسول الله؟

قال: ((أؤدي عنك كتابك وأتزوجك)).

قالت: قد فعلت.

قالت [أي عائشة]: فتسامع [تعني الناس] أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية؛ فأرسلوا ما في أيديهم من السبي، فأعتقوهم وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، فما رأينا امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها، أعتق في سببها مائة أهل بيت من بني المصطلق)[1].

وأسلم بإسلامها بنو المصطلق جميعهم، فكانت بركة على قومها في الدنيا والآخرة، وصارت هي من أمهات المؤمنين، ومن زوجات النبي الكريم ﷺ في الدنيا والآخرة، فما أسعدها وأبركها على قومها.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب العتق، باب في بيع المكاتب إذا فسخت الكتابة، (٣٤٢٩)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، (٣٩٣١).

زواج النبي ﷺ من صفية بنت حُيَي بن أخطب.

هي صفية بنت حُيَيِّ بن أخطب، من سبط اللاويين، تنتسب إلى هارون عليه السلام، وأبوها رئيس بني النضير، وهم قومٌ من يهود سكنوا المدينة، وكان من أشدِّ الناس عداوة للنبي ﷺ ومحاربة له، وتأليبًا عليه.

وحاول اغتياله عندما ذهب الرسول ﷺ لعمرو بن أمية الضمري، حسب العهود بينه ﷺ وبين يهود في معاونته في أداء الديات، فما كان من بني النضير وعلى رأسهم حيي بن أخطب إلا أن تآمروا على رمي حجر كبير عليه ﷺ وهو جالس ينتظر المال.

فأخبره الله بذلك، فقام وتركهم، وبقي أصحابه دون أن يخبرهم، فانكشف سر يهود، فحاصرهم النبي ﷺ وأجلاهم من المدينة، فلما وقعت غزوة خيبر أخذت صفية في الأسرى، وكانت من السبي.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: فجاء دحية الكلبي رضي الله عنه فقال: يا نبي الله، أعطني جارية من السبي، قال: ((اذهب فخذ جارية))، فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة والنضير، لا تصلح إلا لك.

قال: ((ادعوه بها))، فجاء بها، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: ((خذ جارية من السبي غيرها))، قال [أي أنس]: فأعتقها النبي ﷺ وتزوجها[1]، وعرض عليها رسول الله ﷺ الإسلام، فأسلمت، فأعتقها وتزوَّجها وجعل صداقها عتقها، قالت صفية: (وما كان أبغض إليَّ من رسولِ الله، قتل أبي وزوجي، فما زال يعتذر إليَّ، فقال: **((يا صفية، إن أباك ألَّب عليَّ العرب، وفعل وفعل))**، حتى ذهب ذاك من نفسي)[2].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب ما يذكر في الفخذ، (٣٥٨)، ومسلم، كتاب الحج، باب فضيلة إعتاقه أمته ثم يتزوجها، (٢٥٦١)، واللفظ للبخاري.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، (١٧/ ٣١٦).

وفي رواية: أن رسول الله ﷺ قال لها: ((اختاري، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك)).

فقالت: يا رسول الله، لقد هويت الإسلام، وصدَّقتُ بك قبل أن تدعوني حيث صرت إلى رحلك، وما لي في اليهودية أرب، وما لي فيها والد ولا أخ، وخيَّرتني بين الكفر والإسلام، فالله ورسولُه أحبُّ إليَّ من العتق، وأن أرجع إلى قومي، فأمسكها رسول الله ﷺ وتزوَّجها[1].

زواج النبي ﷺ بمارية القبطية.

وأهدى المقوقس للنبي ﷺ مارية القبطية، فأسلمت تحت يده، وأنجبت منه ابنه إبراهيم الذي توفي صغيرًا، وحزن النبيُّ ﷺ لوفاته حزنًا شديدًا، إلا أنه صبر، وقال: ((إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون))[2].

تزوج الصحابة ﷺ من الكتابيات.

لقد أباح الله ﷻ نكاح الكتابيات ـ كما تقدم معنا ـ وتزوج عثمان ﷺ ـ بعد أن ماتت تحته بنتا النبي ﷺ رقية وأم كلثوم ـ نائلة بنت الفرافصة الكلبية، و(كانت نصرانية فأسلمت قبل أن يدخل بها، وكانت نِعم الزوجة لعثمان ﷺ، وكانت عاقلة حكيمة، مخلصة لعثمان، قُطعت أصابعها وهي تدافع عنه عندما هجم عليه الثوار البغاة)[3]، و(تزوَّج طلحة بن عبيد الله ﷺ نصرانية)[4].

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، (٨/ ١٢٣).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: وإنا بك لمحزونون، (١٢٢٠)، ورواه مسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، (٤٢٧٩).

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير، (٧/ ١٧٣، ٢٠٧)، بتصرف واختصار.

(٤) المغني، ابن قدامة، (٦/ ٥٨٩).

الجانب الثالث: شواهد من السيرة وتاريخ المسلمين.

سماحة النبي ﷺ في معاملة غير المسلمين.

بعث الله تعالى نبيه ﷺ رحمة للعالمين، وهو ﷺ مثال للكمال البشري في حياته كلها، مثال للكمال في علاقته بربه، وفي علاقته بالناس كلهم، بمختلف أجناسهم وأعمارهم وألوانهم، مسلمين وغير مسلمين، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: (كان رسول الله ﷺ رجلًا سهلًا)[١]، قال الإمام النووي رحمه الله: (أي سهل الخلق، كريم الشمائل، لطيفًا ميسرًا في الخلق)[٢].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: (ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا؛ كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها)[٣].

بمثل هذه القيم كانت دعوة النبي ﷺ يسرًا في كل شيء، وذود عن حرمات الله، لا عن عرض الدنيا أو أهواء النفوس، وتعددت صور السماحة في هدي النبي ﷺ مع غير المسلمين، وشواهد ذلك من سيرته لا تحصر، وأذكر منها ما يلي:

(١) **رحمته ﷺ بالخلق عامة:** وهو الذي قال الله ﷻ عنه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فكان ﷺ الرحمة المهداة إلى الخلق كلهم، وحث على العطف على الناس ورحمتهم؛ فقد قال ﷺ: **((لا يرحم الله من لا يرحم الناس))**[٤].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع والقران، (٢١٢٧).

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي، (٤/ ٣٠٤).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، (٣٢٩٦)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته، (٤٢٩٤).

(٤) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾، (٦٨٢٨)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، (٤٢٨٣).

وكلمة الناس هنا تشمل كل أحد من الناس، دون اعتبار لجنسهم أو دينهم، وجاءت النصوص في باب الرحمة مطلقة، وقد ساق البخاري في باب رحمة الناس والبهائم حديث النبي ﷺ: ((ما من مسلم غرس غرسًا، فأكل منه إنسان أو دابة؛ إلا كان له صدقة))[1]، فدين الإسلام دين السماحة والرحمة، يسع الناس كلهم، ويغمرهم بالرحمة والإحسان.

(٢) **تجاوزه عن مخالفيه ممن ناصبوه العداء:** فقد كانت سماحته يوم الفتح غاية ما يمكن أن يصل إليه صفح البشر وعفوهم؛ فكان موقفه ممن كانوا حربًا على الدعوة، ولم يضعوا سيوفهم بَعدُ عن حربها أن قال لهم: ((اذهبوا فأنتم الطلقاء))[2].

(٣) **دعاؤه ﷺ لمخالفيه من غير المسلمين:** فقد قدم الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه، فقالوا: يا رسول الله، إن دوسًا قد كفرت وأبت؛ فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس ـ ظنًّا بأن النبي ﷺ إنما رفع يديه للدعاء عليها ـ فقال ﷺ: ((اللهم اهد دوسًا، وائت بهم))[3].

ودعا ﷺ لأم أبي هريرة قبل إسلامها، فقد روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: كنت أدعو أمي إلى الإسلام، وهي مشركة، فدعوتها يومًا، فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي.

قلت: يا رسول الله، إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام؛ فتأبى علي، فدعوتها اليوم؛ فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة، فقال رسول

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، (٥٥٥٣).

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، (٢/ ٤١١).

(٣) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم، (٢٧٢٠) ورواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل غفار وأسلم وجهينة وأشجع ومزينة وتميم ودوس وطيء، (٤٥٨٦).

الله ﷺ: ((اللهم اهد أم أبي هريرة)).

فخرجت مستبشرًا بدعوة نبي الله ﷺ، فلما جئت فصرت إلى الباب؛ فإذا هو مجاف، فسمعت أمي خشف قدمي؛ فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضة الماء، قال: فاغتسلت، ولبست درعها، وعجلت عن خمارها، ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأتيته وأنا أبكي من الفرح ... الحديث[1].

(وجاء الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ادع الله على ثقيف، فقال رسول الله ﷺ: ((اللهم اهد ثقيفًا))، قالوا يا رسول الله، ادع عليهم، فقال: ((اللهم اهد ثقيفًا))، فعادوا فعاد، فأسلموا، فوجدوا من صالحي الناس إسلامًا، ووجد منهم أئمة وقادة)[2].

ومن صور الدعاء ما كان من اليهود حيث كانوا يتعاطسون عند النبي ﷺ؛ رجاء أن يقول لهم يرحمكم الله، فلم يحرمهم من الدعوة بالهداية والصلاح، فكان يقول: ((يهديكم الله ويصلح بالكم))[3].

(٤) كان ﷺ يقبل هدايا مخالفيه من غير المسلمين: فقبل هدية زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم في خيبر، حيث أهدت له شاة مشوية قد وضعت فيها السم[4].

---

(١) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل أبي هريرة ﷺ، (٤٥٤٦).

(٢) تاريخ المدينة، ابن شبة، (٢/ ٤٩٩).

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد، باب إذا عطس اليهودي، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، (٩٤٠).

(٤) رواه البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب قبول الهدية من المشركين، (٢٤٢٤)، ورواه مسلم، كتاب السلام، باب السم، (٤٠٦٠).

وقد قرر الفقهاء قبول الهدايا من الكفار بجميع أصنافهم حتى أهل الحرب، قال ابن قدامة رحمه الله في المغني: (ويجوز قبول هدية الكفار من أهل الحرب؛ لأن النبي ﷺ قبل هدية المقوقس صاحب مصر)[١].

(٥) وكان من سماحة النبي ﷺ أن يخاطب مخالفيه باللين من القول تأليفًا لهم، كما تظهر سماحة النبي ﷺ مع غير المسلمين في كتبه إليهم، حيث تضمنت هذه الكتب دعوتهم إلى الإسلام، بألطف أسلوب، وأبلغ عبارة[٢].

(٦) وكان ﷺ يغشى مخالفيه في دورهم: عاد ﷺ يهوديًا في مرضه، كما في البخاري عن أنس ﷺ أن غلامًا ليهود كان يخدم النبي ﷺ، فمرض؛ فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقال: ((أسلم))؛ فأسلم[٣].

(٧) وكان ﷺ يعامل مخالفيه من غير المسلمين في البيع والشراء والأخذ والعطاء: فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (تُوفي النبي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي، بثلاثين صاعًا من شعير)[٤].

(٨) وكان ﷺ يأمر بصلة القريب، وإن كان غير مسلم: فقال لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: ((نعم صِلِي أمك))[٥]، تلك صور من سماحة النبي ﷺ مع غير المسلمين، وهو ما سار عليه الصحابة ﷺ، والتابعون من بعدهم.

---

(١) المغني، ابن قدامة، (٢١/ ١٩٣).

(٢) ومن ذلك الكتاب الذي أرسله ﷺ إلى هرقل، انظر: ما رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، (٦)، وما رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، (٣٣٢٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب عيادة المشرك، (٥٢٢٥).

(٤) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب، (٢٧٠٠).

(٥) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب قبول الهدية من المشركين، (٢٤٢٧)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين، (١٦٧١).



سماحة الصحابة ﷺ والتابعين في معاملة غير المسلمين.

لقد كان عهد الصحابة والتابعين امتدادًا لعهد النبي ﷺ، وشَهِد صورًا من سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين: من إعانتهم بالمال أو النفس عند الحاجة، ومن كفالة العاجز منهم عن العمل أو كبير السن، وغير ذلك، وهذا هو ما سار عليه الخلفاء الراشدون ﷺ في صدر الإسلام في معاملتهم لأهل الذمة، وأسوق هنا بعض الشواهد والأمثلة التي تبين سماحة الصحابة ﷺ في معاملة غير المسلمين:

(١) (أوصى عمر ﷺ الخليفة من بعده بأهل الذمة، أن يُوفَّى لهم بعهدهم، وأن يُقاتَل من ورائهم، وألا يُكلَّفوا فوق طاقتهم)[١].

(٢) (ومر عمر بن الخطاب ﷺ بباب قوم وعليه سائل يسأل، شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ قال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله، فرضخ له بشيء من المنزل، ثم أرسل إلى خازن بيت المال، فقال: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾[التوبة: ٦٠] والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه)[٢].

(٣) روي عن عمر ﷺ، أنه (لما قدم الجابية من أرض الشام؛ استعار ثوبًا من نصراني، فلبسه حتى خاطوا قميصه، وغسلوه، وتوضأ من جرة نصرانية، وصنع له أهل الكتاب طعامًا، فدعوه، فقال: أين هو؟ قالوا: في الكنيسة، فكره دخولها، وقال لعلي ﷺ: اذهب بالناس، فذهب علي ﷺ بالمسلمين؛ فدخلوا فأكلوا، وجعل علي ﷺ ينظر إلى الصور، وقال: ما على أمير المؤمنين لو دخل فأكل)[٣].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، (١٣٠٥).
(٢) كتاب الخراج، أبو يوسف، ص(١٢٦).
(٣) إغاثة اللهفان، ابن القيم، (١/ ١٥٣-١٥٧).

(٤) عن عبد الله بن قيس ﷺ قال: (كنت فيمن تلقى عمر بن الخطاب مع أبي عبيدة، مقدمه من الشام، فبينما عمر يسير؛ إذ لقيه المقلسون[١] وهم يلعبون بلعبة لهم بين أيدي الأمراء إذا قدموا عليهم بالسيوف والريحان.

فقال عمر ﷺ: مه، ردوهم وامنعوهم، فقال أبو عبيدة ﷺ: يا أمير المؤمنين، هذه سنة العجم ـ أو كلمة نحوها ـ وإنك إن تمنعهم منها؛ يروا أن في نفسك نقضًا لعهدهم، فقال: دعوهم، عمر وآل عمر في طاعة أبي عبيدة)[٢].

(٥) (وصلَّى سلمان وأبو الدرداء رضي الله عنهما في بيت نصرانية، فقال لها أبو الدرداء ﷺ: هل في بيتك مكان طاهر فنصلي فيه؟ فقالت: طهِّرا قلوبكما، ثم صليا أين أحببتما، فقال له سلمان ﷺ: خذها من غير فقيه)[٣].

(٦) (وبعث عمر ﷺ عميرًا ﷺ عاملًا على حمص، فمكث حولًا لا يأتيه خبره، ولم يبعث له شيئًا لبيت مال المسلمين، فقال عمر ﷺ لكاتبه: اكتب إلى عمير فوالله ما أراه إلا قد خاننا، إذا جاءك كتابي هذا فأقبل، وأقبل بما جبيت من فيء المسلمين حين تنظر في كتابي هذا.

فأخذ عمير ـ لما وصله كتاب عمر ـ جرابه، فوضع فيه زاده وقصعته، وعلق إداوته[٤]، وأخذ عنزته[٥]، ثم أقبل يمشي من حمص حتى قدم المدينة، فقدم وقد شحب لونه، واغبر وجهه، فدخل على عمر ﷺ، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله، قال عمر ﷺ: ما شأنك؟ قال: ما تراني صحيح البدن ظاهر الدم، معي الدنيا أجرها بقرونها؟

---

(١) المُقَلِّس: الذي يلعب بين يدي الأمير إذا قدم المصر، انظر: لسان العرب، ابن منظور، (٦/ ١٧٩).
(٢) كتاب الأموال، أبو عبيد القاسم بن سَلام، (١/ ٤٠٥).
(٣) إغاثة اللهفان، ابن القيم، (١/ ١٥٣).
(٤) الإداوة: إناء صغير من الجلد، انظر: عمدة الأحكام، عبد الغني المقدسي، ص(٦).
(٥) العنزة: الحربة القصيرة، انظر: عمدة الأحكام، عبد الغني المقدسي، ص(٦).

قال عمر: وما معك؟ وظن عمر أنه جاءه بمال، قال: معي جرابي أجعل فيه زادي، وقصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثيابي، وإداوتي أحمل فيها وضوئي وشرابي، ومعي عنزتي أتوكأ عليها وأجاهد بها عدوًا إن عرض لي، فوالله ما الدنيا إلا تبع لمتاعي.

وسأله عمر عن سيرته في قومه، وعن الفيء فأخبره، فحمد فعله فيهم، ثم قال: جددوا لعمير عهدًا، قال عمير: إن ذلك شيء لا أعمله لك، ولا لأحد بعدك، والله ما سلمت بل لم أسلم، لقد قلت لنصراني: أخزاك الله، فهذا ما عرضتني له يا عمر، وإن أشقى أيامي يوم خلفت معك)[١].

لقد عظم على عمير قوله لرجل من غير المسلمين: أخزاك الله، وهو دعاء، وما ذكر خطأ اقترفه في ولايته على حمص أعظم من هذا، وفي ذلك دليل على أن هذا الدين ما جاء إلا بالرحمة والهداية وإنقاذ البشر من الضلال إلى الهدى، ومن ظلمات الكفر إلى نور الطاعة.

إن الدعاء لغير المسلمين وفق ضوابط الشرع من أعظم صور التسامح في الإسلام، ومن محاسنه الكبرى التي تنظر إلى الإنسان نظرة تكريم وعناية، وفي الدعاء استمالة ظاهرة لقلب المدعو، فكل أحد يتمنى من الناس الدعاء له بالخير، ومن هنا قال ابن عباس ﷺ: (لو قال لي فرعون: بارك الله فيك؛ قلت: وفيك، وفرعون قد مات)[٢].

(٧) (وعن مجاهد قال: كنت عند عبد الله بن عمرو ﷺ وغلامه يسلخ شاة، فقال: يا غلام، إذا فرغت فابدأ بجارنا اليهودي، فقال رجل من القوم: اليهودي، أصلحك الله؟ قال: سمعت النبي ﷺ يوصي بالجار حتى خشينا أنه

---

(١) صفة الصفوة، ابن الجوزي، (١/ ١٥٦).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد، باب كيف يدعو للذمي، (١١٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، (١١١٣).

سيورثه)[١]، وهذا لون من السماحة في المعاملة والعدل الذي لا يعرف له وجود إلا في الإسلام؛ لأنه قائم على احترام الإنسانية ومعرفة حقوقها.

(٨) (وعندما أمر عمر بن عبد العزيز رحمه الله مناديه ينادي: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها، قام إليه رجل ذمي من أهل حمص، فقال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله، قال: وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي، والعباس جالس.

فقال له عمر: يا عباس، ما تقول؟ قال: نعم، أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد، وكتب لي بها سجلًا، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله تعالى، فقال عمر: نعم، كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد، قم فاردد عليه ضيعته، فردها عليه)[٢].

(٩) وفي عهد الرشيد، كانت وصية القاضي أبي يوسف له بأن يرفق بأهل الذمة، حيث يخاطبه بقوله: (وقد ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله، أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ، والتقدم لهم حتى لا يُظلموا، ولا يؤذَوا، ولا يكلَّفوا فوق طاقتهم، ولا يؤخذ من أموالهم إلا حق يجب عليهم)[٣].

بمثل هذه المعاملة ساد المسلمون الأوائل، وكانت معاملتهم محط إعجاب مخالفيهم؛ فشهدوا لهم بالسمو في أخلاقهم والتسامح في معاملتهم.

بعض شهادات منصفي الغرب في سماحة الإسلام مع غير المسلمين.

منذ فجر الدعوة الإسلامية كانت شهادة خصومها ظاهرة بينة، إذ رأوا من سماحة هذا الدين وتيسيره؛ ما بهر عقولهم وأخذ بألبابهم، ورأوا من سلوك أهله

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، باب جار اليهودي، (١٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، (١٢٨).

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، (٩/ ٢٣٩).

(٣) الخراج، أبو يوسف، ص(١٢٤-١٢٥).

ما دعاهم إليه، فاستجابت نفوس الكثيرين إليه وإلى أهله وإن لم يؤمنوا به، فدوَّن التاريخ شهاداتهم له ولأهله بحسن المعاملة والسماحة العظيمة؛ فمن ذلك:

(١) ما كتبه نصارى الشام في صدر الإسلام، حيث كتب النصارى في الشام، سنة ١٣هـ إلى أبي عبيدة بن الجراح ﷺ يقولون: (يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا، وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا)[١]، واستمر هذا النهج في معاملة غير المسلمين عبر تاريخ الإسلام.

(٢) وفي الوقت الحاضر تعيش طوائف عديدة من النصارى في بلاد الشام ومصر وبلاد المغرب العربي، وهي شاهد على سماحة الإسلام، جعلت المستشرق الإنجليزي توماس آرنولد يقول: (إن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح)[٢].

ويقول أيضًا: (لما كان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم، ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني؛ تمتعوا ـ وخاصة في المدن ـ بحالة من الرفاهية والرخاء في الأيام الأولى من الخلافة)[٣].

(٣) وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: (العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام، فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها، سُمح لهم جميعا ـ دون أي عائق يمنعهم ـ بممارسة شعائر دينهم، وترك المسلمون لهم بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى.

أوليس هذا منتهى التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال ومتى؟

(١) الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد، ص(٧٣).

(٢) الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد، ص(٧٠).

(٣) الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد، ص(٨١).

ومن ذا الذي لم يتنفس الصعداء بعد الاضطهاد البيزنطي الصارخ، وبعد فظائع الأسبان واضطهاد اليهود.

إن السادة والحكام المسلمين الجدد لم يزجوا أنفسهم في شئون تلك الشعوب الداخلية، فبطريرك بيت المقدس يكتب في القرن التاسع لأخيه بطريرك القسطنطينية عن العرب: إنهم يمتازون بالعدل، ولا يظلموننا البتة، وهم لا يستخدمون معنا أي عنف)[١].

(٤) ويقول غوستاف لوبون: (فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا سمحًا مثل دينهم)[٢]، ويتحدث عن صور من معاملة المسلمين لغير المسلمين فيقول: (وكان عرب أسبانيا خلا تسامحهم العظيم يتصفون بالفروسية المثالية؛ فيرحمون الضعفاء، ويرفقون بالمغلوبين، ويقفون عند شروطهم، وما إلى ذلك من الخِلال التي اقتبستها الأمم النصرانية بأوروبا منهم مؤخرًا)[٣].

(٥) ويقول هنري دي شامبون مدير مجلة ريفي بارلمنتير الفرنسية: (لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجي على العرب المسلمين في فرنسا؛ لما وقعت بلادنا في ظلمات القرون الوسطى، ولما أصيبت بفظائعها، ولا كابدت المذابح الأهلية التي دفع إليها التعصب الديني المذهبي، ولولا ذلك الانتصار الوحشي على المسلمين في بواتييه؛ لظلت أسبانيا تنعم بسماحة الإسلام، ولنجت من وصمة محاكم التفتيش، ولما تأخر سير المدنية ثمانية قرون.

ومهما اختلفت المشاعر والآراء حول انتصارنا ذاك، فنحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة، مدعوُّون لأن نعترف بأنهم كانوا

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، ص(٣٦٤).

(٢) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص(٧٢٠).

(٣) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص(٣٤٤).

مثال الكمال البشري في الوقت الذي كنا فيه مثال الهمجية)[١].

(٦) ويقول المستشرق دوزي: (إن تسامح ومعاملة المسلمين الطيبة لأهل الذمة أدى إلى إقبالهم على الإسلام، وأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة مما لم يألفوه في دياناتهم السابقة)[٢].

(٧) ويقول المستشرق بارتولد: (إن النصارى كانوا أحسن حالًا تحت حكم المسلمين، إذ إن المسلمين اتبعوا في معاملاتهم الدينية والاقتصادية لأهل الذمة مبدأ الرعاية والتساهل)[٣].

(٨) ويقول المستشرق ديورانت: (لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون، يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح، لا نجد لها نظيرًا في البلاد المسيحية في هذه الأيام)[٤].

(٩) ويقول بول فندلي ـ وهو عضو سابق في الكونجرس الأمريكي ـ: (على المسلمين الإعلان جهرًا عن هويتهم الإسلامية، والبحث عن وسائل تمكنهم من عرض حقيقة دينهم على غير المسلمين، ولا يجدر بهم انتظار حدوث أزمة كي يعلموا الآخرين بحقيقة دينهم، لا بد للمسلمين أن يجاهروا بإسلامهم مجاهرة يكون سلوكهم الحسن معها، وإنجازاتهم المجدية سبيلًا للتعرف على الإسلام)[٥].

(١٠) وكانت سماحة الإسلام سببًا في إسلام الشاعر الأمريكي رونالد ركويل، فقال بعد أن أشهر إسلامه: (لقد راعني حقًا تلك السماحة التي يعامل بها الإسلام مخالفيه؛ سماحة في السلم، وسماحة في الحرب، والجانب الإنساني في

(١) نقلًا عن صور من حياة التابعين، عبد الرحمن الباشا، ص(٤٢٠).

(٢) تاريخ أهل الذمة في العراق، توفيق سلطان، ص(٧٠)، نقلًا عن: نظرات في تاريخ الإسلام، دوزي، ص(٤١١).

(٣) تاريخ أهل الذمة في العراق، توفيق سلطان، ص(١٢٤)، نقلًا عن الحضارة الإسلامية، بارتولد، ص(١٩).

(٤) قصة الحضارة، ول ديورانت، (١٣/ ١٣٠).

(٥) لا سكوت بعد اليوم، بول فندلي، ص(٣٤٤).

الإسلام واضح في كل وصاياه))[١].

إن عظمة هذا الدين لا تخفى إلا على من جهل حقيقة الإسلام، أو عميت بصيرته عنه، أو كان به لوثة من هوى، أو حقد مقيت، وإلا فإن سماحة الإسلام في المعاملة، وتيسيره في كل أموره، ظاهر بأدنى تأمل لمن طلب الحق، وسعى إلى بلوغه والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وصايا نبوية بأقباط مصر

تلك هي الصورة التي أوجبها الله تعالى على كل مسلم في التعامل مع أهل الكتاب عمومًا وأما أقباط مصر، فلهم شأن خاص ومنزلة متميزة، فقد أوصى بهم رسول الله ﷺ وصية خاصة، يعيها عقل كل مسلم ويضعها في السويداء من قلبه.

فقد روت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته فقال: ((**الله الله في قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدة وأعوانًا في سبيل الله**))[٢]، وفي رواية لابن حبان: ((**... فاستوصوا بهم، فإنهم قوة لكم، وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله**))[٣].

وقد صدَّق الواقع التاريخي ما نبَّأ به الرسول ﷺ؛ فقد رحب الأقباط المصريون بالمسلمين الفاتحين، وفتحوا لهم صدورهم، رغم أن الروم الذين كانوا يحكمونهم كانوا نصارى مثلهم، ودخل الأقباط في دين الله أفواجًا، حتى أصبحت مصر بوابة الإسلام إلى إفريقيا كلها، وغدا أهلها عُدَّة وأعوانًا في سبيل الله، وعن أبي ذر ﷺ

(١) معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، إدوار غالي الدهبي، ص(٤٩).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، (١٩٠٦٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (٣١١٣).

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، (٦٨٠٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٦٤): رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح.

أن رسول الله ﷺ قال: ((إنكم ستفتحون أرضًا يُذكر فيها القيراط[١]، فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا))[٢].

وفي رواية: ((إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحمًا، أو قال: ذمة وصهرًا))[٣].

قال العلماء: (الرحم التي لهم: كون هاجر أم إسماعيل عليه السلام منهم، والصهر: كون مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ منهم)[٤].

ولا غرو أن ذكر الإمام النووي رحمه الله هذا الحديث في كتابه (رياض الصالحين) في باب: (بر الوالدين وصلة الأرحام) إشارة إلى هذه الرحم التي أمر الله ورسوله بها أن توصل بين المسلمين وبين أهل مصر، حتى قبل أن يسلموا.

وعن كعب بن مالك الأنصاري قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((إذا فُتحت مصر؛ فاستوصوا بالقبط خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا))[٥]، يعني أن أم إسماعيل رضي الله عنها منهم.

والرسول ﷺ يجعل للقبط هنا من الحقوق أكثر مما لغيرهم، فلهم الذمة: أي عهد الله ورسوله، وعهد جماعة المسلمين، وهو عهد جدير أن يُرعَى ويُصان، ولهم رحم ودم وقرابة ليست لغيرهم؛ فقد كانت هاجر أم إسماعيل أبي العرب المستعربة منهم بالإضافة إلى مارية القبطية، التي أنجب منها ﷺ ابنه إبراهيم.

❁❁❁❁❁❁

---

(١) القيراط: جزء من أجزاء الدينار، انظر: لسان العرب، ابن منظور، (٧/ ٣٧٤)، وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به، بل هم لا يزالون كذلك بالنسبة للمساحة والصاغة وغيرها، وكل شيء قابل لأن يقسم إلى ٢٤ قيراطًا.

(٢) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر، (٤٦١٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر، (٤٦١٥).

(٤) رياض الصالحين، النووي، (١/ ٥٠).

(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير، (١٥٤٦٠)، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، باب ذكر إسماعيل بن إبراهيم صلوات الله عليهما، (٣٩٩١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٦٩٨).

الفصل الثاني

الجدال بالتي هي أحسن

الفصل الثاني
الجدال بالتي هي أحسن

ولئن كانت تلك الصورة السامقة هي التي ارتضاها الله تعالى لعباده المؤمنين في تعاملهم مع غيرهم من أهل الملل الأخرى، ممن يقطنون في أرض الإسلام، على صعيد التعامل في الأمور الدنيوية ـ فإن الله تعالى قد أكمل لنا هذه الصورة بما يزيدها علوًا وبهاء، وسموًا وجمالًا، بذلك الجانب الراقي في التعامل في ناحية الدين، عن طريق الحوار الحضاري، أو بالتعبير القرآني: الجدال بالتي هي أحسن، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فيبين الله تعالى في هذه الآية الكريمة سبيل الاحتكاك الديني مع أهل الكتاب، قال السعدي رحمه الله: (ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب، إذا كانت من غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مَرضِيَّة، وأن لا يُجادلوا إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد على الباطل وتهجينه، بأقرب طريق موصل لذلك.

وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، إلا من ظلم من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله، لأن المقصود منها ضائع، ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

أي: ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أن الإله واحد.

ولا تكن مناظرتكم إياهم على وجه يحصل به القدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدح بجميع ما معهم، من حق وباطل، فهذا ظلم، وخروج عن الواجب وآداب النظر، فإن الواجب أن يرد ما مع الخصم من الباطل، ويقبل ما معه من الحق، ولا يرد الحق لأجل قوله، ولو كان كافرًا)[1].

وفي ظلال تلك الآيات الكريمة، وباستقراء سيرة سيد المرسلين محمد ﷺ؛ نستطيع أن نميز بين ثلاثة أنواع من الجدال بالتي هي أحسن، يمكن أن تكون بين المسلم وجيرانه من أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي:

(١) الجدال بغرض التعريف بالإسلام.

(٢) الجدال بغرض الدعوة إلى الإسلام.

(٣) الجدال بغرض الالتقاء على كلمة سواء.

وفيما يلي نلقي الضوء على هذه الأنواع الثلاثة بشيء من التفصيل:

أولا: الجدال بغرض التعريف بالإسلام.

وهذا النوع من الحوار هام للغاية، ويهدف إلى تعريف أهل الكتاب بالصورة الصحيحة لشريعة الإسلام، وخاصة ذلك الجزء الخاص بالتعامل مع أهل الكتاب، تلك الصورة المشرقة التي أوضحنا معالمها فيما سبق، ومن شأن هذا الجدال أن يحقق للمجتمع المسلم فوائد كثيرة، من أهمها:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، (١/ ٦٣٢).

(١) تهيئة نفوس أهل الكتاب لدعوتهم إلى الإسلام، من خلال إزالة الحواجز النفسية التي تكونت لديهم تجاه شريعة الإسلام، عبر تزييفات المستشرقين والمؤرخين الغربيين تارة، ثم عبر بعض التصرفات الخاطئة الخارجة عن شريعة الله تعالى، من قبل بعض المسلمين المتهورين، تجاه أهل الكتاب تارة أخرى.

(٢) تماسك البناء الداخلي للمجتمع الإسلامي، بحيث يشعر أهل الذمة أنهم آمنون مطمئنون في ظلال شريعة الله تعالى، وأن الحكم الإسلامي خير لهم من غيره، لأنه يعطي لهم حقوقهم من منطلق عقدي يوجب على المسلمين تأديتها، ويضمن لهم عدم التفريط فيها.

وإذا تحقق ذلك؛ فإنهم لا يمكن أن يستخدموا في دول الإسلام كطابور خامس من قبل بعض القوى الخارجية الحاقدة على الإسلام وأهله، والتي تحاول دومًا استخدام أهل الذمة كذريعة للتدخل المباشر، وغير المباشر في شئوننا الداخلية.

نموذج من السيرة:

ولنتأمل في هذا الحوار الراقي الذي خاضه بعض المسلمين مع ملك من أهل الكتاب، وكيف آتى أكله في حماية المسلمين، بل ومهد لإسلام هذا الملك الكريم فيما بعد.

فعن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج النبي ﷺ قالت: (لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار [أي النجاشي]، أمنَّا على ديننا وعبدنا الله تعالى، لا نؤذَى، ولا نسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشًا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأُدْم[١]، فجمعوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته[٢] بطريقًا إلا أهدوا له هدية.

---

(١) الأدم: جمع أديم وهو الجلد المدبوغ، انظر: لسان العرب، ابن منظور، (٨/ ١٢).

(٢) جمع بطريق: وهو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم، انظر: لسان العرب، ابن منظور، (١٠/ ٢١).

ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدموا للنجاشي هداياه، ثم سلوه أن يُسلِمَهم إليكم قبل أن يكلمهم.

قالت: فخرجا فقدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار وخير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه صبأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرف قومهم، لنردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم؛ فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينًا[1]، وأعلم بما عابوا عليهم.

فقالوا لهما: نعم، ثم إنهما قرَّبا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا: أيها الملك، إنه قد صبأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم، لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، من أن يسمع النجاشي كلامهم، فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لا هَيْمُ الله [أي: لا والله]، إذًا لا أسلمهم إليهما،

---

(١) أعلى بهم عينًا: قال السهيلي: أي أبصر بهم، أي عينُهم وأبصارُهم فوق عين غيرهم في أمرهم، انظر: الروض الأنف، السهيلي، (١/ ٩٢).

ولا أكيد قومًا جاوروني ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم؟ فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم، ما جاوروني.

ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائنًا في ذلك ما هو كائن، فلما جاءه وقد دعا النجاشي أساقفته[1] فنشروا مصاحفهم [أي أناجيلهم]حوله، سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا ديني ولا دين أحد من هذه الأمم؟

قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب ﷺ، فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف.

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

قالت: فعدد عليه أمور الإسلام ... ثم قال: فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده؛ فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا،

(١) أساقفته: جمع الأسقف، وهو العالم الرئيس من علماء النصارى ورؤسائهم، وهو اسم سرياني ويحتمل أن يكون سُمِّي به لخضوعه وانحنائه في عبادته، انظر: النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير، (٢/ ٩٥٩).

وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحلَّ ما كنا نستحلُّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وشقّوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

قالت أم سلمة: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قالت: فقال له جعفر ﷺ: نعم، فقال له النجاشي، فاقرأه عليَّ؟ فقرأ عليه صدرًا من ﴿ كهيعص ﴿١﴾ ﴾ قالت: فبكى والله النجاشي، حتى أخضل[1] لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال النجاشي: إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فوالله لا أُسلِمُهم إليكم أبدًا، ولا أكاد.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: فلما خرجا (عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة) من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لأنبئنه غدًا عيبهم عنده، ثم أستأصل به خضراءهم[2]، قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة -وكان أتقى الرجلين فينا-: لا تفعل، فإن لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالفونا.

قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد، قالت: ثم غدا عليه الغد، فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولًا عظيمًا، فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه.

قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها، فاجتمع القوم،

---

(١) أخضل لحيته: أي ابتلت بالدموع، يقال: خضل وأخضل إذا ندي، انظر: النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير (٢/ ٤٣).

(٢) قال ابن منظور: قولهم أباد الله خضراءهم أي: سوادهم ومعظمهم، انظر: لسان العرب، ابن منظور، (٤/ ٢٤٣).

فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله فيه، ما قال الله، وما جاء به نبينا كائنًا في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه، قال لهم: ما تقولون في عيسى بن مريم؟

فقال له جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: نقول فيه الذي جاء به نبينا: هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء(١) البتول(٢).

قالت: فضرب النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ منها عودًا، ثم قال: ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت(٣) بطارقته حوله حين قال ما قال.

فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم سيوم(٤) بأرضي، من سبَّكم غرم، ثم من سبَّكم غرم، فما أحب أن لي دَبْرًا(٥) ذهبًا، وإني آذيت رجلًا منكم، ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لنا بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليَّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه، قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار)(٦).

وقد أسلم النجاشي رضي الله عنه، وصدَّق بنبوة النبي ﷺ وإن كان قد أخفى إيمانه عن قومه؛ لما علمه فيهم من الثبات على الباطل، وحرصهم على الضلال، وجمودهم على العقائد المنحرفة وإن صادمت العقل والنقل(٧).

---

(١) العذراء: الجارية التي لم يمسها رجل وهي البكر، انظر: النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير (٣/ ٤٢٤).

(٢) المرأة البتول: أي المنقطعة عن الرجال لا شهوة لها فيهم، انظر: النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير (١/ ٢٢٨).

(٣) تناخرت بطارقته: أي تكلموا، كذا فُسِّر في الحديث، انظر: النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير، (٥/ ٧٢).

(٤) سيوم: أي الآمنون، كذا جاء تفسيره في الحديث وهي كلمة حَبشية، انظر: النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير (٢/ ١٠٦١).

(٥) الدَّبْر: هو الجبل بلسان الحبشة، انظر: النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير (٢/ ٢٠٦).

(٦) انظر: سيرة ابن هشام، (١/ ٣٣٤-٣٣٧)، زاد المعاد، ابن القيم، (٣/ ٢٨-٢٩)، الروض الأنف، السهيلي، (٢/ ١٠٧-١١٦).

(٧) الهجرة في القرآن الكريم، أحزبي سامعون جزولي، ص(٣٠٩).

فعن أبي هريرة ﷺ: (أن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى فصف بهم، وكبر عليه أربع تكبيرات)[١]، وعن جابر ﷺ قال: قال النبي ﷺ حين مات النجاشي: ((مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة))[٢]، رضي الله عنه وأرضاه، وكانت وفاته رحمه الله، سنة تسع عند الأكثر وقيل سنة ثمان قبل فتح مكة[٣].

ثانيا: الجدال بغرض الدعوة إلى الإسلام.

ذلك أن رسالة الإسلام عالمية الدعوة، رحمة بجميع البشر، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولا يجوز أبدًا أن نترك أهل الكتاب يعيشون في ظلمات الضلالة، ونحن نملك نور الإيمان، مع التنبيه على أن ذلك لا بد أن يكون بالحكمة والموعظة الحسنة، ومراعاة المفاسد والمصالح، بحيث لا ينقلب الأمر إلى مبرر وذريعة لكل حاقد أن يشعل نار الفتنة في المجتمع، بما يهدد أمن البلاد والعباد.

شواهد من السيرة.

وهذا النوع من الحوار له الكثير من الشواهد من سيرة النبي ﷺ، فمن تلك الشواهد:

(١) الكتب التي بعثها النبي ﷺ إلى ملوك النصارى، يدعوهم فيها إلى الدخول في الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، فمنها:

كتاب النبي ﷺ إلى هرقل.

فقد وردت رواية صحيحة تضمنت نص كتاب النبي ﷺ الذي بعثه مع دحية الكلبي إلى هرقل عظيم الروم، وذلك في مدة هدنة الحديبية وهو كما يلي: ((بسم

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب التكبير على الجنازة، (١٢٤٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب موت النجاشي، (٣٥٨٨)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب في التكبير على الجنازة، (١٥٨٣).

(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، (١/ ٩٩)، والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، (١/ ١٠٩).

الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى: أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤]))[١].

ولقد تسلَّم هرقل رسالة النبي ﷺ، ودقق في الأمر كما في الحديث الطويل المشهور بين أبي سفيان وهرقل المروي في الصحيحين حين سأله عن أحوال النبي ﷺ، وقال بعد ذلك لأبي سفيان: (... فإن كان ما تقول حقًّا؛ فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشَّمت لقاءه، ولو كنت عنده لغَسَلت عن قدمه)[٢].

كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي[٣]

أما كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة، فقد أرسله مع عمرو بن أمية الضمري، وقد جاء في الكتاب: ((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى النجاشي ملك الحبشة: أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول، فحملت به، فخلقه من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، (٦)، ورواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، (٣٣٢٢)، واللفظ للبخاري.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، (٦)، ورواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، (٣٣٢٢)، واللفظ للبخاري.

(٣) لا بد من الإشارة أن النجاشي: اسم لملك الحبشة، انظر: لسان العرب، ابن منظور، (٦/ ٣٥١)، وهو لقب مثل: قيصر وكسرى، والنجاشي الذي أرسل له الرسول ﷺ تلك الرسالة غير النجاشي الذي أسلم، والذي كان يسمى أصحمة، وصلى عليه النبي ﷺ عند وفاته.

وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله ﷻ، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى))[1].

ثالثا: الجدال بغرض الالتقاء على كلمة سواء.

والأصل في هذا النوع من الحوار هو قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

قال السعدي رحمه الله: (أي: قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾

أي: هلمُّوا نجتمع عليها، وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، ولم يخالفها إلا المعاندون والضالون، ليست مختصة بأحدنا دون الآخر، بل مشتركة بيننا وبينكم، وهذا من العدل في المقال والإنصاف في الجدال، ثم فسرها بقوله: ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾، فنفرد الله بالعبادة، ونخصه بالحب والخوف والرجاء، ولا نشرك به نبيًا، ولا ملكًا، ولا وليًا، ولا صنمًا، ولا وثنًا، ولا حيوانًا، ولا جمادًا.

﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ بل تكون الطاعة كلها لله ولرسله؛ فلا نطيع المخلوقين في معصية الخالق،؛ لأن ذلك جَعْل للمخلوقين في منزلة الربوبية، فإذا دُعي أهل الكتاب أو غيرهم إلى ذلك، فإن أجابوا كانوا مثلكم، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وإن تولوا فهم معاندون متبعون أهواءهم؛ فأشهدوهم أنكم مسلمون.

---

(١) نصب الراية، الزيلعي، (١٣/ ٤٧١).

ولعل الفائدة في ذلك: أنكم إذا قلتم لهم ذلك وأنتم أهل العلم على الحقيقة؛ كان ذلك زيادة على إقامة الحجة عليهم، كما استشهد تعالى بأهل العلم حجة على المعاندين، وأيضًا فإنكم إذا أسلمتم أنتم وآمنتم؛ فلا يعبأ الله بعدم إسلام غيركم، لعدم زكائهم ولخبث طويتهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧].

وأيضا فإن في ورود الشبهات على العقيدة الإيمانية مما يوجب للمؤمن أن يجدد إيمانه، ويعلن بإسلامه؛ إخبارًا بيقينه وشكرًا لنعمة ربه)[1].

وفي هذا النوع من الحوار، يلتقي فيه المسلمون مع أهل الكتاب على الثوابت المشتركة بين الديانتين؛ لإقرارها في المجتمع ككل، مما يصب في النهاية في الصالح العام لأمة الإسلام ورعاياها من أهل الكتاب، ومن هذه الثوابت التي يمكن الالتقاء عليها:

محاربة الرذيلة بكل أنواعها وصورها.

الالتقاء على الثوابت الأخلاقية والسلوكية الثابتة في كل الشرائع السماوية.

محاربة تيارات الإلحاد والمادية التي تنكر وجود الخالق ﷻ.

الوقوف في وجه العلمانية اللادينية التي تدعو إلى تهميش الدين، وإبعاده عن واقع الحياة.

وينبغي هنا أن يتحرز من اختلاط الأمور على بعض الواهمين، ممن يدعون إلى ما يسمي حوار الأديان، الذي يقصدون به معنى كفريًا والعياذ بالله، وهو أن تذوب الديانات في بعضها، بحيث يتساوى المسلم مع غيره في الدنيا والآخرة. فإن طبيعة الأديان أنها لا تتحاور، بل هي ناسخة لبعضها البعض، وإن كانت مشتركة في أصل الرسالة السماوية، وكونها من عند الله تعالى، وكما كانت شريعة

(١) تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، (١/ ١٣٣).

عيسى عليه السلام ناسخة لشريعة موسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام؛ فإن شريعة محمد ﷺ ناسخة لغيرها من الشرائع.

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ولكن المقصود من هذا النوع من الحوار؛ هو توحيد المواقف العملية النابعة من تلك الثوابت المشتركة بين جميع الرسالات السماوية، بحيث تصب في النهاية في صالح المجتمع ككل.

شواهد من السيرة.

ولعل أبلغ شاهد من سيرة النبي ﷺ على هذا النوع من الحوار يتبدى لنا في قوله ﷺ: ((**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا، ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت**))[1].

وهذا الحلف الذي قصده النبي ﷺ هو ما يعرف في التاريخ بحلف الفضول، والذي كان بعد رجوع قريش من حرب الفجار.

وسببه أن رجلًا من زبيد قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل ومنعه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي أشراف قريش؛ فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم، فوقف عند الكعبة، واستغاث بآل فهر وأهل المروءة، ونادى بأعلى صوته:

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، (١/ ١٣٣).

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحِجر والحَجَر
إن الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغُدَر[١]

فقام الزبير بن عبد المطلب فقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت بنو هاشم، وزهرة، وبنو تَيْم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان، فصنع لهم طعامًا، وتحالفوا في شهر حرام، وهو ذو القعدة؛ فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكونُنَّ يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يُرد إليه حقه، ما بلَّ بحر صوفة، وما بقي جَبَلا ثبير وحراء مكانهما[٢].

ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه، وسمَّت قريش هذا الحلف حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر، وفي هذا الحلف قال الزبير بن عبد المطلب:

إن الفضول تعاقدوا وتحالفوا ... ألا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا ... فالجار والمُعترُّ[٣] فيهم سالم

وقد حضر النبي ﷺ هذا الحلف الذي هدموا به صرح الظلم، ورفعوا به منار الحق، وهو يعتبر من مفاخر العرب وعرفانهم لحقوق الإنسان[٤].

وقد قال ﷺ: ((**شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حمر النعم، وأني أنكثه**))[٥].

---

(١) الروض الأنف، السهيلي، (١/ ١٥٥-١٥٦).
(٢) السيرة النبوية، أبو شهبة، (١/ ٢١٣).
(٣) المعتر: الضيف الزائر، انظر: المصباح المنير، أحمد محمد علي الفيومي، (٦/ ٩٤).
(٤) السيرة النبوية، أبو شهبة، (١/ ٢١٤).
(٥) رواه أحمد في مسنده، (١٥٦٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (١٩٠٠).

وإن كان النبي ﷺ قد قبل أن يلتقي مع هؤلاء الكفار من عبدة الأوثان على موقف عملي، يتمثل في العمل على نصرة المظلوم، نابع من قيم مشتركة بين جميع العقلاء، فلئن قبلنا ذلك مع أهل الكتاب، فإن ذلك ولا شك يكون من باب أولى، إذ أنهم أقرب إلينا من عبدة الأوثان، لأنهم أصحاب رسالة سماوية، حتى وإن أصابها التحريف والتبديل.

الموقف الصحيح من الحضارة الغربية

ونختم هذا المبحث بالكلام على نقطة هامة وخطيرة تتعلق بموضوع البحث، ألا وهي: موقف الإسلام من الحضارة الغربية، ذلك أن بعض أهل الكتاب في بلادنا نتيجة فهمهم الخاطئ المشوه لعقيدة الإسلام، يحسبون أن العامل المؤثر في نظرتنا إلى الحضارة الغربية، هو كون هذه الحضارة نصرانية النشأة.

وساعدهم على ذلك الفهم الخاطئ من قبل بعض المسلمين لعقيدة الولاء والبراء[1]، والتي تستلزم عندهم رفض كل قيم ومنجزات الحضارة الغربية، حتى يصح للمسلم ولاؤه وبراؤه.

ونريد هنا أن نصحح هذا المفهوم الخاطئ ببيان الموقف الصحيح الذي يضعه التصور الإسلامي من الحضارة الغربية.

بداية لا بد أن نعلم أنه يمكن تحليل مكونات أي حضارة إلى مكونين رئيسين، هما:

(١) الإنتاج المادي الذي أبدعته تلك الحضارة في جميع مناحي الحياة.

(٢) القيم التي نبعت منها تلك الحضارة.

فأما موقفنا من الإبداع المادي الذي أنتجته الحضارة الغربية:

فلا بد أن نعترف أن الغرب قد بلغ في التقدم المادي والتكنولوجي شأنًا لم يبلغه غيره على مدى التاريخ الحضاري لأمم الأرض، ولا يجادل في هذه الحقيقة إلا مكابر أو معاند.

---

(١) انظر الفصل الثالث: التصور الصحيح لعقيدة الولاء والبراء، ص(٧٩).

لذلك فإن علينا ـ نحن المسلمين ـ أن نسعى جاهدين للاستفادة من هذا الإنتاج الحضاري بقدر طاقتنا، لاسيما ونحن مأمورون شرعًا، أن نسعى لامتلاك مقومات القوة والسيادة، من أجل القيام بمهمة قيادة هذه البشرية الهائمة في ظلمات التيه، البعيدة عن الهداية الربانية.

كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقد كان المسلمون أحق وأولى من غيرهم أن يصلوا لهذا المستوى الهائل من التقدم المادي والحضاري، لو ظلوا مستمسكين بما أكرمهم الله به من شريعة غراء كانت السبب المباشر في حيازتهم قصب السبق الحضاري، وتبوئهم ذرى المجد والرقي في حقبة القرون الوسطى.

تلك الفترة التي كانت فيها أوروبا ترزخ تحت نير الجهل والتخلف، حتى عرفت تلك الفترة في التاريخ الغربي بالقرون المظلمة، بل إن النهضة التي شهدتها أوروبا بعد ذلك، لم تحدث إلا بعد أن احتك الغرب الأوروبي بالحضارة الإسلامية من خلال الحروب الصليبية التي اندحرت على أيدي المسلمين.

وهنا أدركت أوروبا ذلك البون الشاسع بينهم وبين المسلمين في حضارتهم وتقدمهم، فدأبت في نقل العلوم العربية وترجمتها، واستقت منها ذلك المنهج التجريبي في البحث والمعرفة، الذي توصل إليه المسلمون بعدما رأوا قصور المنهج اليوناني في العلم، والذي يقوم على مجرد الفلسفة والنظر التأملي، لا عبر

التجربة العملية والدليل العلمي.

هذا المنهج التجريبي الذي قامت على أساسه الحضارة الغربية بأسرها، ما توصل إليه المسلمون إلا عبر توجيهات شرعهم الحنيف، الذي وجههم دومًا للملاحظة والتجريب، والمنحى العملي الواقعي، وربط الأسباب بمسبباتها، وثمارها العملية.

وذلك الذي نقوله هو محض حقائق التاريخ، التي لا ينكرها إلا جاهل أو معاند، كما اعترف بذلك المنصفون من علماء الغرب أنفسهم:

يقول بريغولت في أحد كتبه الشهيرة، وهو كتاب [بناء الإنسانية Making of Humanity]•• (إن ما يدين به علمنا للعرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين لهم بوجوده نفسه، فالعالم القديم لم يكن للعلم فيه وجود، وقد نظم اليونان المذاهب، وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات، ولكن أساليب البحث في دأب وأناة، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها والمناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبي، كل ذلك كان غريبًا تمامًا على المزاج اليوناني.

أما ما ندعوه «العلم» فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة، وهذه الروح وتلك المناهج أوصلها العرب إلى العالم الأوروبي)[1].

وتقول الكاتبة الألمانية الدكتورة زيغريد هونكه: (إن هذه الطفرة العلمية الجبارة، التي نهض بها أبناء الصحراء من العدم، من أعجب النهضات العلمية الحقيقية في تاريخ العقل البشري ... إن الإنسان ليقف حائراً أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة، التي حار في تعليلها وتكييفها، وإن أوروبا تدين للمسلمين وللحضارة العربية، وإن

(١) نقلا عن كتاب: (تجديد الفكر الديني في الإسلام) لمحمد إقبال، ترجمة الأستاذ عباس محمود، ص(١٥٠).

الدَّين الذي في عنق أوروبا وسائر القارات للعرب كبير جداً)[١].

ويقول جيمس بيرك متحدثًا عن انبهار الغرب بحضارة المسلمين في الأندلس: (استمر تدفق طلاب العلم على أسبانيا في طوفان منتظم، فاستقر بعضهم هناك، وتفرغ بعضهم لترجمة النصوص التي يبحثون عنها، ثم عادوا مرة أخرى إلى بلادهم في الشمال، غير أن الجميع أصابهم الذهول من تلك الحضارة التي وجدوها في الأندلس.

لقد كان العرب ينظرون إلى الأوربيين الشماليين على أنهم لا يزيدون في مستواهم الفكري والثقافي على مستوى الصوماليين، أما المثقفون الشماليون فقد وجدوا في أسبانيا مجتمعًا ثقافيًا على درجة عالية جدًا من التفوق، بالمقارنة مع مستوى المجتمع الثقافي في بلادهم؛ مما ترك لديهم إحساسًا بالغيرة من الثقافة العربية، التي ظلت تؤثر في الفكر الغربي مئات السنين)[٢].

وأما موقفنا من القيم التي قامت عليها أو أنتجتها تلك الحضارة الغربية، فإن ما يقتضيه العدل والإنصاف أيضا أن نقول: إن هناك قيم إيجابية كثيرة وصلت إليها الحضارة الغربية بعد طول عناء وصراع، كتلك التي تختص بالعمل والإنتاج والفاعلية، والعدل والمساواة وغيرها من القيم الإيجابية، والتي تتوافق في جوهرها مع قيم الإسلام وأخلاقياته[٣].

فهذه القيم نجحت الحضارة الغربية في ترسيخها كقيم ثابتة في مجتمعاتهم، بحيث تطبع السلوك العام للمواطن الغربي.

وإن كانت تلك القيم مشتركة بين حضارتنا وحضارتهم، وإن كنا نحن الآن

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، ص(٩٠).

(٢) جيمس بيرك، عندما تغير العالم**The Day The Universe Changed***ص(٥٤).

(٣) راجع في ذلك كتاب: الإسلاميون والديمقراطية، للمؤلف.

قد تخلفنا عنها بفعل انحرافنا عن ديننا، وتفريطنا في شرع ربنا؛ إلا أنه ينبغي أن يكون واضحًا في أذهان الجميع أن هناك فرقًا كبيرًا بين تلك القيم عندنا وعندهم، فرغم أن الصورة واحدة في الحالتين، إلا أن الأصل الذي بنيت عليه تلك القيم في كلتا الحضارتين مختلف كل الاختلاف.

ففرق كبير جدًّا بين أن تُبنى الأخلاق والقيم على الأصل العقدي، بحيث تنبع من الدين، ومن وحي العقيدة، كما هو الحال في الحضارة الإسلامية، وبين أن يكون الأصل الذي تبنى عليه الأخلاق والقيم هو تحقيق المصلحة وفقط، كما هو الحال في الحضارة الغربية المادية.

إن القيم في الحالة الثانية تكون مبتوتة عن الأصل الرباني، ومن ثم فهي قابلة للانحراف والزوال، وتدخلها الأهواء والمطامع البشرية.

ولذلك رأينا العجب من تلك الحضارة الغربية في القرنين الأخيرين، رأينا الغرب الذي يتغنى بقيم العدل والحرية، والديموقراطية والمساواة وحقوق الإنسان، هو بنفسه الذي يسحق تلك القيم سحقًا، حينما يتعلق الأمر بالعرب أو المسلمين، أو يتعارض تطبيقها أدنى تعارض مع المصلحة الغربية.

نعم تهاوت تلك القيم الجوفاء المنبتة الأصل في كثير من المشاهد التي لا زالت الساحة العالمية تعج بها في هذه الأيام، تارة تحت قذف طائرات الأباتشي الأمريكية الصنع، وهي تقصف العُزَّل من الفلسطينين، بأيدي يهود، وبمباركة من الإدارة الأمريكية.

وتارة تحت عجلات المجنزرات الأمريكية البريطانية المشتركة وهي تسحق المسلمين في العراق، بمخالفة من الشرعية الدولية المزعومة، ممثلة في هيئة الأمم

المتحدة، التي رفضت بأغلبية كاسحة غزو أمريكا وبريطانيا للعراق.

ثم تهاوت مرة ثالثة في بلد الحرية والنور فرنسا، التي منعت الطالبات المسلمات من دخول الجامعة، لا لشيء إلا لأنهن مارسن أبسط حقوقهن الشخصية من ارتداء الحجاب، وهو أمر فوق أنه من شعائر الدين الإسلامي، فهو أيضًا من أخص خصائص الديموقراطية الغربية التي تجرم تجريما قاطعًا أي مساس بالحرية الشخصية، حتى لو كانت في رذيلة أو إباحية أو أي سلوكيات شاذة، طالما أنها لا تتعدى على حقوق الآخرين.

كما تهاوت من قبل عندما أتاحت أوروبا الفرصة لذبح شعب مسلم كامل في البوسنة والهرسك، بفعل من الصرب المتعصبين، بعد أن غضت أوروبا جمعاء الطرف عن تلك المذابح الوحشية التي لم يعرف لها التاريخ مثيلًا، والتي أقامها الصرب للمسلمين في يوغوسلافيا.

ولم تتدخل إلا في النهاية لتسدل الستار على ذلك المشهد، بعد أن أتم الصرب مهمتهم القذرة، كل ذلك مخافة أن تقوم في داخل أوروبا دولة إسلامية، قد تفكر في يوم من الأيام أن تجدد أمجاد الإسلام في تلك البلاد.

وأما نحن المسلمين، فلأن قيمنا موصولة برب العالمين، فإنها تكون لدينا ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، لأننا نتعبد الله تعالى بها، ولا نطبقها لمجرد المنفعة الشخصية.

يقول الدكتور جاسم محمد سلطان: (ومن أهم الخصوصيات التي ميزت نشوء الحضارة الإسلامية: أن نشوءها سببه الوحي الرباني، مما جعلها حضارة خالدة المبادئ والتعاليم التي تحملها وتدعو إليها)[1]

ولذلك رأينا العجب العجاب في تاريخ المسلمين، الذي يزخر بالعديد من المواقف

---

(١) الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ، د.جاسم محمد سلطان، ص(١٢٣).

الحضارية الرائعة التي تعجز العقلية الغربية حتى عن مجرد تصورها أو تخيلها.

فمن ذلك أنه لما حشد الإمبراطور هرقل جيشًا ضخمًا لصد قوات المسلمين المحتلة، كان لزامًا على المسلمين -نتيجة لما حدث- أن يركزوا كل نشاطهم في المعركة التي أحدقت بهم.

فلما علم بذلك أبو عبيدة قائد العرب، كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم برد ما جُبي من الجزية من هذه المدن، وكتب إلى الناس يقول: (إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جُمع لنا من الجموع، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم، ونحن لكم على الشرط، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم).

وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين، وقالوا: (ردكم الله علينا، ونصركم عليهم [أي على الروم] فلو كانوا هم؛ لم يردوا علينا شيئًا، وأخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا لنا شيئًا)[1].

وعلى الجانب الآخر من الصورة: فإن القيم المحورية التي قامت عليها الحضارة الغربية تطبعها بطابع من المادية المحضة، التي تفصل الدين عن الدنيا، وتقطع عن الإنسان كل صلة بالسماء، أو على أقل تقدير تحصرها في زاوية ضيقة جدًّا من حياته ـ إن كان متدينًا ـ ممثلة في احتفال ديني أسبوعي أو سنوي، ولهذا الفصام النكد الذي أحدثته أوروبا بين الدين والحياة قصة طويلة.

(فقد لجأت أوروبا إلى العلمانية اللادينية، التي تفصل الدين عن الحياة، كمُخَلِّص من طغيان الكنيسة التي استمدته من دين محرَّف لا يَمُتُّ بِصِلَةٍ إلى ذلك الدين الذي جاء به المسيح ﷺ، ومن ثم تحولت حياتهم إلى جحيم لا

---

(١) الخراج، أبو يوسف، ص(١٣٩).

يطاق من ذلك الدين المحرف، الذي كان يمثل لهم ظلامًا وجهلًا واستبدادًا واستعبادًا، وانصرافًا عن كل ما يمت للدنيا بصلة.

فعندما أصبح للكنيسة سلطان سياسي، إلى جانب السلطان الروحي؛ بدأ العصر الفعلي لطغيان الكنيسة، أو ما يسميه الغرب: بالحكم الثِّيُوقراطي، ففرض رجال الدين سلطانهم على الأباطرة، فلا عجب إذًا أن تثور أوروبا على ذلك الدين الذي ما أنزل الله به من سلطان.

وكانت العلمانية بما اشتملت عليه من إبعاد للدين عن الهيمنة على واقع الحياة، وعزله عن النفوذ السياسي بصفة خاصة، وتقرير حق الإلحاد، والمنافحة عنه، وحق مهاجمة الدين ومفاهيمه لمن أراد ذلك ـ وكانت العلمانية بهذه الصفات هي سبيل الخلاص في نظر أوروبا من ربقة ذلك الدين الذي يمثل في حسها الأغلال والتي تسحق وجود الإنسان)[1].

ولا يستطيع أحد أن ينكر على الغرب تمرده على ذلك الانحراف الجسيم، الذي لا يمكن أن تستقيم في ظله حياة البشر.

وأما الذي لا يمكن أن تُعذر فيه أوروبا فهو نفورها من الدين بصورة عامة، الصحيح منه وغير الصحيح، فيا ليت الغرب إذ خرج على هذا الانحراف اهتدى إلى الإسلام، ولكنهم أعلنوها حربًا على الدين عامة.

تلك هي قصة الصراع المرير الذي خاضه الغرب ضد الديانة المسيحية التي انحرف بها فساد البابوات عن أصلها الرباني، والتي أرست لديه قناعة راسخة بأن الدين هو عدو الحضارة الأول، وأن الوظيفة الوحيدة التي يمكن أن تقبل له أن يظل حبيسًا داخل ضمير الشخص أو جدران الكنائس، دون أن يكون له

---

(١) العلمانيون والإسلام، محمد قطب، ص(٢١)، بتصرف واختصار.

أي سلطان على الحياة.

ومن ثم فقد بدأت تلك القيم الأرضية البحتة تغزو أوروبا بأكملها، وظهرت كثير من النظريات الفلسفية المنحرفة التي لبست لبسة البحث العلمي، والتي تهدف إلى ترسيخ فصل الإنسان عن كل ما يمت للدين بصلة، فظهرت نظرية دارون التي تؤصل لحيوانية الإنسان، وتنزع عنه نفخة الروح التي كرمه الله تعالى بها.

فما دام الأمر كذلك، وما دام الإنسان يستوي مع الحيوان، فليرتع إذًا في شهواته وملذاته، وليضرب عرض الحائط بكل دين أو خلق.

ثم استغل اليهود نظرية دارون أبشع استغلال، كما يقول كتاب بروتوكولات حكماء صهيون: (إن دارونْ ليس يهوديًّا، ولكنا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع، ونستغلها في تحطيم الدين المسيحي)[1].

وقدموا للعالم ثلاثة من مشاهير العلماء، قاموا بصياغة الفكر الأوروبي، على أساس معاد للدين، من وحي نظرية دارون، في أخطر ثلاثة ميادين في عالم الفكر: الاقتصاد، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، أولئك هم ماركس، وفرويد، ودوركايم.

وإن اختلف الثلاثة في الميادين التي شكلوا من خلالها العقلية الأوربية؛ فإن الحقائق المشتركة التي التقوا عليها تتمثل في الحملة على الدين والأخلاق والتقاليد، ونفي القداسة عنها، وتشويه صورتها وسمعتها، والتشكيك في قيمتها، مع جعل كل ذلك في صورة حملة باسم العلم والبحث العلمي، والربط بين التحلل الديني، والانحلال الخلقي وبين التطور الطبيعي للحياة البشرية، والإيحاء بأن هذا التحلل وذاك الانحلال أمر حتمي، لأن التطور حتمي، لا قبل لأحد بوقفه عن طريقه المحتوم.

فتحطيم قيود الأخلاق ضروري وحتمي لعملية التطور، وقد تقيد بها الناس

---

(١) نقلا عن: التطور والثبات في حياة البشرية، محمد قطب، ص(٣٣).

في الماضي في المجتمع الزراعي، رغبة من الاقطاعيين في استعباد العبيد، فينبغي أن نطرحها اليوم في المجتمع الصناعي المتطور، كما يقول ماركس.

أو تقيدوا بها نتيجة الجهل الخطير بحقيقة النفس الباطنية، وبأن الأخلاق كبت ضار بكيان الإنسان كما يقول فرويد، أو تقيدوا بها جهلًا منهم بأنه لا توجد حقيقة ثابتة للقيم الخلقية، إنما هي تتطور بتطور حالة المجتمع كما يقول دوركايم.

وينبغي كذلك ـ تبعًا لتلك النظرة ـ أن يتحطم الدين، فهو قيد آخر يعوق التطور، حيث أنه قد ورثه الناس من أسلافهم في عماية وجهالة، وجمود وتأخر، وقد كان هذا كله يناسب المجتمع الزراعي المتأخر، أما المجتمع الصناعي المتطور فلا يناسبه هذه الخزعبلات كما يقول ماركس.

أو قد كان هذا يناسب عصر الجهالة السابق، يوم كنا نظن الدين شيئا له قداسة منزلًا من السماء، قبل أن نعرف أنه كبت جنسي ضار مؤذ منفر، كما يقول فرويد، أو يوم ظننا خطأ منا وجهالة أن الدين كامن في فطرة الإنسان، قبل أن نكتشف أنه مجرد انعكاس للحالة الاجتماعية، كما يقول دوركايم[1].

تلك إذًا الجذور الأصلية لقيم الحضارة المادية التي نتج عنها ذلك الفصام الأبدي الأوربي بين الدين والحياة، وهذا هو الذي نرفضه ـ نحن المسلمين ـ شكلًا وموضوعًا.

فإن كل المبررات التي خرجت أوروبا على الدين والأخلاق من أجلها لا تمت لدين الله تعالى ـ الإسلام ـ بصلة، فإسلامنا العظيم هو الذي دعانا إلى عمارة الأرض، والقيام بواجب الاستخلاف فيها.

قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

---

(١) التطور والثبات في حياة البشرية، محمد قطب، ص(٥٦-٥٨)، بتصرف.

وقال ﷺ: ((إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر))[1].

✿ وهو دين عظيم يلبي حاجات الإنسان سواء منها الروحية أو الحسية، ويبيح للإنسان التمتع بطيبات الحياة الدنيا في غير سرف أو تعد أو عدوان، ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ولكنه يضع لها ضوابط لقضاء شهواته حتى لا ينتكس إلى مستوى الحيوان.

✿ وهو دين عظيم يطلب من الإنسان تعظيم خالقه من خلال الإيمان به وبأسمائه وصفاته، وتحقيق عبوديته، ولكنه مع ذلك يعلن تكريم الإنسان الذي خصه الله ﷻ بنفخة علوية من روحه ﷻ، ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠].

✿ وهو دين يحث على العلم، بل ويجعل طلبه فرضًا على كل مسلم: ((طلب العلم فريضة على كل مسلم))[2]، حتى إن أول آية نزلت من القرآن الكريم: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ [العلق: ١].

وبفضل هذا الدين تعلم المسلمون المنهج التجريبي في العلوم، ووضعوا بذلك أسس التقدم العلمي الذي حدث في أوروبا بعد ذلك عندما ترجموا أصول العلوم من المسلمين.

✿ وهو دين يحترم العقل، ويدعو إلى استخدامه باعتباره نعمة من نعم الله ﷻ،

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، باب اصطناع المال، (٤٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، (٤٧٩).

(٢) رواه ابن ماجة، كتاب المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، (٢٢٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة، (٢٢٤).

ويضع للإنسان الضوابط التي تعينه على التفكير السليم المجرد عن الهوى، وكم هي الآيات التي أنهاها الله ﷻ بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ و﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

✿ وهو دين يكفل للإنسان الأمان التام في عرضه، ونفسه، وماله، ودمه، وأهله، وجميع حرماته.

✿ وهو دين يستوي أمام نظام حكمه جميع الناس، فلا فضل لأحدهم على الآخر إلا بتقوى الله تعالى.

مما سبق نعلم أن العلمانية اللادينية، وما نتج عنها من مادية بحتة، تفصل الدين عن الحياة؛ ليس لها أدنى مبرر للوجود في بلاد الإسلام، ولئن كانت أوروبا قد تخلفت في ظل النظام الكنسي المستبد، وأحدثت تقدمًا هائلًا عندما نبذته واعتنقت العلمانية كنظام للحياة؛ فإن العكس تمامًا هو الذي حدث في دول المسلمين.

فالتاريخ خير شاهد على مدى التقدم الهائل الذي أحدثه المسلمون عندما كانوا يعيشون في ظل نظام إسلامي متكامل، وأنهم ما تخلفوا عن ركب الحضارة إلا بعد تخليهم عنه، وليس أدل على ذلك من الواقع المتخلف الذي تحياه الأمة، مع أنها الآن ـ بل منذ عشرات السنين ـ وهي تُحكم بأنظمة علمانية في الأعم الأغلب؛ فما تزداد يومًا بعد يوم إلا تخلفًا وتأخرًا.

وفي نهاية هذا الفصل نقول: إننا نحن المسلمين بما معنا من قيم ربانية، ومن عقيدة صحيحة، نحن فقط المرشحين لقيادة البشرية نحو خيرها وسعادتها، نحن من نملك المُخَلِّص الحقيقي الذي يمكن أن يخلص إنسان العصر من هوة الشقوة التي أوقعته فيها الحضارة الغربية المادية، التي تعاملت معه على أنه كتلة من الطين، لا تحتاج إلا للمتاع الحسي وفقط.

ونست أو تناست أن به أيضا نفخة علوية كريمة من الله ﷻ، هي سر تلك

المكانة العالية التي يتبوؤها الإنسان بين سائر المخلوقات، إنها نفخة الروح التي تحتاج لغذائها، تماما كما يحتاج الجسد إلى غذائه ليصح ويستقيم.

ففي العالم بأسره اليوم جوعة روحية لا يمكن أن يسدها إلا المسلمون، لأن الروح تحتاج أن ترتبط بخالقها، وفق تصور واضح لحقيقة الإنسان ودوره في الحياة، وعلاقته بهذا الكون من حوله، وتصوره لحقيقة عبوديته لرب العالمين، واستخلافه في الأرض من قبل ربه ﷻ.

والتصور الصحيح لذلك كله إنما يوجد اليوم فقط في عقيدة المسلمين، التي تكفل الله جل وعلا بحفظها من الزيغ والتحريف.

ولم يربط حفظها بقوة أو ضعف حملتها من المسلمين؛ لأنها الرسالة الخاتمة التي أرسلها الله لعالم البشر من خلال أشرف البشر محمد ﷺ.

إننا نملك ـ بصفتنا مسلمين ـ البلسم الشافي لكل عذابات البشرية اليوم، التي تجرعت مرارتها يوم فرت من ربها ﷻ، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

لكن الذي ينقصنا أن نوصل تلك الرحمة إلى البشرية الضالة، التائهة عن هداية ربها ﷻ، ولن يكون ذلك إلا بأن ننهض أولًا من كبوتنا، نتمسك بإسلامنا وقيمنا، ونحولها إلى واقع عملي ملموس، ثم نستفيد مما لدى غيرنا في تحصيل أسباب القوة والريادة والسيادة، نهضم ما عندهم من إبداع مادي، نستوعبه لنأخذ منه ما ينفعنا، ثم نطوره لنبني نهضتنا الإسلامية وفق قيمنا الإسلامية، تمامًا كما فعل المسلمون الأوائل.

أما الذين يدعون إلى تعقب الغرب حذو القذة بالقذة في كل قيمهم وإنتاجهم

على السواء؛ فنرد عليهم بكلام الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله، الذي كان يدعو في كتاباته إلى ضرورة إبداع بدائل فكرية، ومناهج علمية مستقلة، تتناسب مع البيئة الإسلامية، بدلًا من استيرادها كما هي من الغرب الأوربي.

ويلح على ضرورة الاستقلال الفكري في دراسة مشاكلنا الحضارية والاجتماعية، حيث يعتقد أن هناك خصوصيات كثيرة تتميز بها كل حضارة عن غيرها.

(فلكل حضارة نمطها وأسلوبها وخيارها، وخيار العالم الغربي ذي الأصول الرومانية الوثنية؛ قد جنح بصره إلى ما حوله مما يحيط به نحو الأشياء، بينما الحضارة الإسلامية عقيدة التوحيد المتصلة بالرسل قبلها، سبح خيارها نحو التطلع الغيبي وما وراء الطبيعة نحو الأفكار.

فجزيرة العرب، لم يكن لها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة، يذهب وقته هباء لا ينتفع به؛ لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة: الإنسان، التراب، والوقت؛ راكدة خامدة، وبعبارة أصح: مكدسة لا تؤدي دورًا ما في التاريخ.

حتى إذا ما تجلت الروح بغار حراء، كما تجلت من قبل بالوادي المقدس، أو بمياه الأردن؛ نشأت بين هذه العناصر الثلاثة المكدسة -الإنسان والتراب والوقت- حضارة جديدة، فكأنها ولدتها كلمة (اقرأ) التي أدهشت النبي الأمي، وأثارت معه وعليه العالم.

ولهذا (فالحضارة) لا يمكن استيرادها من بلد إلى آخر رغم استيراد كل منتجاتها ومصنوعاتها؛ لأن (الحضارة) إبداع، وليست تقليدًا أو استسلامًا وتبعية كما يظن الذين يكتفون باستيراد الأشياء التي أنتجتها حضارات أخرى.

فبعض القيم لا تباع ولا تشترى، ولا تكون في حوزة من يتمتع بها كثمرة

جهد متواصل أو هبة تهبها السماء، كما يهب الخلد للأرواح الطاهرة، ويضع الخير في قلوب الأبرار)[1].

فلا بد إذن مع الاقتباس من الآخرين أن نظل محتفظين بقيمنا وثوابتنا الإسلامية، حتى تكون نهضتنا على أسس ثابتة راسخة، رسوخ هذه العقيدة الربانية التي تعلو ولا يعلى عليها.

وعندما تنهض هذه الأمة من كبوتها، وتعود حضارتنا إلى قوتها وازدهارها، فحينئذ يسمع لقولنا، ونقدم للبشرية رحمة هذا الدين، ونحن في موقع القوة، الذي لا يسمع لغيره، لا في موقع الضعف، الذي يفقد السامعين ثقتهم في أصحابه.

❁❁❁❁❁❁

(١) شروط النهضة، مالك بن نبي، نقلًا عن الفكر الاستراتيجي في فهم التاريخ، د.جاسم محمد سلطان، ص(١٢٣- ١٢٤).

الفصل الثالث

التصور الصحيح

لعقيدة الولاء والبراء

الفصل الثالث

التصور الصحيح لعقيدة الولاء والبراء

في هذا الفصل، نناقش قضية ذات أثر كبير في التعامل مع أهل الكتاب؛ تلك هي قضية عقيدة الولاء والبراء، فلقد أدى الغبش الذي حدث عند البعض في فهمهم لهذه الحقيقة؛ إلى خلل كبير في التصور الذي يرتضيه الله تعالى للتعامل مع أهل الكتاب.

فجنح البعض إلى ناحية الإفراط، والآخر إلى ناحية التفريط، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، فنحاول إن شاء الله تعالى في هذا الفصل أن نفصِّل في هذه القضية بيانًا شافيًا كافيًا، به تنتظم النصوص الشرعية في مكانها اللائق بها، بحيث يكمل بعضها بعضًا.

فيجمع المسلم بين التبرؤ من الكفر وأهله، وبين معاملة أهل الملل الأخرى بالآداب الشرعية، وإعطائهم حقوقهم الثابتة لهم في شرع الله تعالى، بلا أدنى تعارض بين هذا وذاك؛ فنقول وبالله التوفيق:

بداية لا بد أن نعلم أنه (لا عقيدة ولا توحيد لله عز وجل بدون ولاء وبراء، بل إن كلمة التوحيد التي لا يدخل أحد الإسلام إلا بها هي ولاء وبراء، فنصفها براء ونصفها الآخر ولاء، فـ(لا إله) براء من كل شيء يعبد من دون الله عز وجل، و(إلا الله) ولاء وعبودية لله تعالى وحده، فيكون معناهما جميعًا: لا معبود بحق إلا الله تعالى)[1].

يقول الشيخ صالح الفوزان: (من أصول العقيدة الإسلامية: أنه يجب على كل مسلم يدين بهذه العقيدة أن يوالي أهلها ويعادي أعداءها، فيحب أهل التوحيد والإخلاص ويواليهم، ويبغض أهل الإشراك ويعاديهم)[2].

---

(١) فبهداهم اقتده، عبد العزيز الجليل، ص(١٤٣).

(٢) من مقال بعنوان: الولاء والبراء في الإسلام، للشيخ صالح الفوزان، نشر بمجلة البحوث العلمية، العدد الخامس والعشرون لسنة ١٤٠٩هـ.

والمتأمل لكتاب الله تعالى؛ يدرك دون عناء مقدار ما أولى القرآن لهذه القضية من عناية واهتمام، فمن الآيات القرآنية التي تعرضت لهذا النوع من التوحيد قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧)﴾ [المائدة: ٥٧].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١)﴾ [الممتحنة: ١].

وبعد أن ظهر لنا ما لمبحث الولاء والبراء من أهمية، وبان لنا حجم العناية التي أولاها كتاب الله عز وجل له؛ بقي علينا أن نعرف معنى الولاء والبراء، ثم نلقي الضوء على بعض الصور التي تبرز فيها قضية الولاء والبراء.

(فأما الولاء؛ فإنما نعني به معان هي: النصرة، والمحبة، والإكرام، والاحترام، والكون مع المحبوبين ظاهرًا وباطنًا ... وعليه فموالاة الكفار تعني: التقرب إليهم بإظهار الود لهم بالأقوال، والأفعال، والنوايا.

أما البراء فهو يعني بالمقابل: البعد والخلاص، والعداوة، بعد الإعذار والإنذار)[1].

وقد زعم بعض دعاة الإسلام أننا لا نكره الكفرة والفاسقين ونحب لهم الخير؛ لأن المسلم ليس حقودًا، وهذا الكلام فيه حق وباطل.

(١) الولاء والبراء، القحطاني، ص(٨٩-٩٠).

يقول الشيخ عمر الأشقر: (أما الباطل: فهو زعمهم أن المسلم لا يكره أحدًا، وهذا غير صحيح، فإن الله تعالى أوجب علينا كراهة الشيطان، وبغض فرعون وأبي جهل وأضرابهم، فهؤلاء أعداء الله يكرههم ويبغضهم، والله يريد منا أن نبغض أعداءه، وقد جاءت النصوص صريحة في ذلك: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾ [المجادلة: ٢٢].

وحذرنا الله تعالى من مودتهم ومحبتهم، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١)﴾ [الممتحنة: ١].

وقد أمرنا بالاقتداء في هذا بإبراهيم عليه السلام والذين معه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤)﴾ [الممتحنة: ٤].

وهذه المسألة غاية في الوضوح والبيان في نصوص الكتاب والسنة، أما الحق الذي في كلام هؤلاء: فهو محبة الخير لهؤلاء الظلمة الكفرة، وذلك بدعوتهم للإيمان ومحبتنا لإسلامهم)[1].

---

(١) التوحيد محور الحياة، د.عمر الأشقر، ص(٤٠-٤١).

الولاء والبراء بمعناه الصحيح موافق لسماحة الإسلام

إن عقيدة الولاء والبراء في الإسلام لها علاقة بأصل الإيمان، وهي إحدى أُسُس الدين الإسلامي العظام؛ وهذا يعني أنها لا بُدّ أن تصطبغ بصبغة الإسلام الكبرى؛ وهي الوسطيةُ والسماحة والرحمة، فقد قال الله ﷻ عن نبيه ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[الأنبياء: ١٠٧].

وقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ ﴾[الحج: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[البقرة: ١٨٥].

فالمعادلة السهلة، والنتيجة القطعية: أن الولاء والبراء طالما أنه من الإسلام؛ فهو وَسطٌ، وسَمْحٌ، ورحمة، لا يشك في هذه النتيجة مسلم، ولا غير مسلم إذا كان منصفًا، ومع ذلك؛ فلا بد من بيان عدم تعارض معتقد الولاء والبراء مع مبادئ الوسطية والسماحة والرحمة، وذلك يظهر من خلال النقاط الآتية؛ التي لا تزيد على أن تكون أمثلة لتأكيد هذه الحقيقة، وإزالة ما عسى أن يكون أصابها من غبش في ذهن البعض؛ نتيجة فهم خاطئ، أو تصور قاصر لنصوص الكتاب والسنة:

أولاً: لا يُجبر أحدٌ من الكفار الأصليين على الدخول في الإسلام.

قال الله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة:٢٥٦].

ثانيًا: حفظ العهد الذي بيننا وبين الكفار إذا وَفُوا هُم بعهدهم وذمتهم.

قال الله ﷻ: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [التوبة: ٤].

وعن أبي رافع ﷺ ـ وكان قبطيًا قبل الإسلام ـ قال: (بعثتني قريشٌ إلى

رسول الله ﷺ، فلما رأيت رسول الله ﷺ، أُلقيَ في قلبي الإسلام.

فقلت: يا رسول الله، إني والله لا أرجع إليهم أبدًا، فقال رسول الله ﷺ: ((**إني لا أخيس بالعهد**[١] **ولا أحبس البُرُد**[٢]**، ولكن ارجع، فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن فارجع**))، قال: فذهبتُ ثم أتيتُ النبيَّ ﷺ فأسلمتُ)[٣].

يقول الإمام ابن حزم رحمه الله في مراتب الإجماع: (واتفقوا أن الوفاء بالعهود التي نصَّ القرآنُ على جوازها ووجوبها، وذُكرت بصفاتها وأسمائها، وذُكرت في السنة كذلك، وأجمعت الأمة على وجوبها أو جوازها؛ فإن الوفاء بها فرضٌ، وإعطاؤها جائز)[٤].

ثالثًا: حرمة دماء أهل الذمة والمعاهدين، إذا وَفُوا بذمتهم وعهدهم.

والنصوص في ذلك كثيرة متوافرة، ونذكر طرفًا منها ها هنا:

قال ﷺ: ((**من قَتَل معاهَدًا لم يَرِح رائحةَ الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا**))[٥]، وقال ﷺ: ((**مَن أمَّن رجلًا على دمه فقتله؛ فأنا بريء من القاتل، وإن كان المقتول كافرًا**))[٦].

رابعًا: الوصية بأهل الذمة، وصيانة أعراضهم، وأموالهم، وكرامتهم.

قال ﷺ: ((**إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحمًا، أو قال: ذمة وصهرًا**))[٧].

---

(١) أخيس بالعهد: أي لا أنقض العهد، انظر: عون المعبود، شمس الحق العظيم أبادي، (٦/ ٢٠٣).

(٢) أحبس البُرُد: أي لا أحبس الرسل، انظر: عون المعبود، شمس الحق العظيم أبادي، (٦/ ٢٠٣).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الإمام يُستَجَنُّ به في العهود، (٢٣٧٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، (٢٧٥٨).

(٤) مراتب الإجماع، ابن حزم، ص(١٢٣).

(٥) رواه البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم، (٢٩٣٠).

(٦) رواه الطبراني في المعجم الكبير، (١٦٩٢)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الرهن، كتاب الرهن، (٦٠٨٢)، واللفظ للطبراني، وصححه الألباني في صحيح الجامع، (٦١٠٣).

(٧) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر، (٤٦١٥).

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: (أُوصي الخليفة من بعدي بذمة الله وذمة رسوله ﷺ: أن يُوَفَّى لهم بعهدهم، وأن يُقاتَل مِنْ ورائهم، وألا يكلَّفُوا فوق طاقتهم)[١].

وقد ذكر الإمام ابن حزم رحمه الله شروط أهل الذمَّة، ثم نقل الاتفاق أنهم إذا فعلوا ذلك (فقد حَرُمت دماءُ كل من وَفَّى بذلك، ومالُه وأهلُه وظُلْمُهُ)[٢].

خامسًا: اختلاف الدين لا يلغي حقَّ ذوي القربى.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان:١٥].

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: (قَدِمَت عليَّ أُمِّي وهي مُشركة في عهد قريش إذْ عاهدهم، فاسْتَفْتَيْتُ رسولَ الله ﷺ فقلتُ: يا رسول الله، قدمت عليَّ أُمِّي وهي راغبة، أفأَصِلُ أُمي؟ قال: ((نعم، صِلي أمك))[٣].

سادسًا: البر والإحسان والعَدلَ حقٌّ لكل مَنْ لم يقاتل المسلمين، أو يظاهر على قتالهم.

قال الله ﷻ: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر ﷺ، (١٣٠٥).

(٢) مراتب الإجماع، ابن حزم، ص(١١٦).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب قبول الهدية من المشركين، (٢٤٢٧)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين، (١٦٧١).

وأما العَدْل، فهو فرضٌ واجب لكل أحد حتى مَن نُبغضه بحق ممن عادانا وقاتلنا من الكفار؛ يقول الله تعالى في ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة: ٨].

وقال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ولذلك فقد حذَّر النبيُّ ﷺ من دُعاء المظلوم ولو كان كافرًا؛ فقال ﷺ: ((**اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرًا؛ فإنه ليس دونها حجاب**))[1].

وبذلك يؤكد الإسلام على فرض العدل مع غير المسلمين بأقوى تأكيد، والعَدْلُ رأس كُلِّ فضيلة، فبهذه الأخلاق والآداب يُعامل المسلمون غيرَ المسلمين، وهذه الأخلاقُ والآداب من دين الإسلام، يأمرهم بها كتابُ ربهم، وسُنَّةُ نبيّهم ﷺ، وطالما أنها من دين الله تعالى؛ فلا يمكن أن تتعارض مع حكم آخر من دين الله تعالى أيضًا، وهو الولاء والبراء.

ولا شك أن بعضَ المتعالمين ـ فضلًا عمن سواهم من جهلة المسلمين ـ ظنُّوا أن بين تلك الآداب وبين الولاء والبراء تعارضًا، وأنه لا يُمكن أن يجمع المسلم بينهما.

فمال بعضهم إلى التفريط في الولاء والبراء غلوًّا في تطبيق تلك الآداب، ومال بعضهم الآخر إلى التفريط في تلك الآداب غلوًّا في الولاء والبراء، ودين الله وسط بين الغالي والجافي.

وبيان عدم تعارض تلك الآداب مع الولاء والبراء: أن تلك الآداب إذا أردنا أن تكون شرعيَّةً محبوبةً لله تعالى؛ فيجب أن نلتزم بها طاعةً لأمر الله تعالى وأمر رسوله

---

(١) رواه أحمد في مسنده، (١٢٠٩١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، (١١٩).

ﷺ مع بُغض الكفار لكفرهم، وعدم نُصرة غير المسلمين على المسلمين، فنحن نلتزم بتلك الآداب لا حُبًّا للكفار، ولكن إقامةً للعدل والإحسان الذي أُمرنا به.

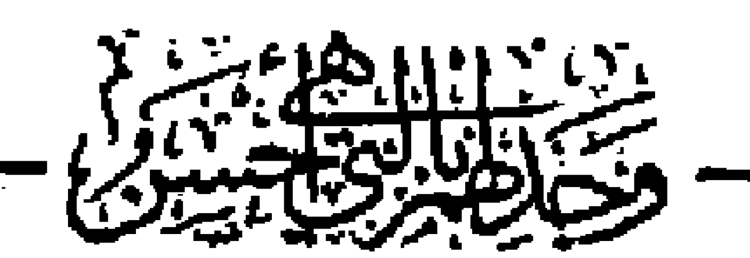
وقد عقد الإمام القرافي فصلًا لبيان الفرق بين الأمر بعدم موالاة الكفار، والأمر ببر أهل الذمة منهم والإحسان إليهم؛ قال فيه رحمه الله: (وإذا كان عقد الذمة بهذه المثابة؛ تعيَّن علينا أن نبرهم بكل أمر لا يكون ظاهره يدل على مودات القلوب ولا تعظيم شعائر الكفر، فمتى أدى إلى أحد هذين؛ امتنع وصار من قبيل ما نُهي عنه في الآية وغيرها)[1]، ثم فصَّل كلامه بذكر بعض الأمثلة.

ويلحظ أن القرافي أطلق في مواطن أنَّ المحرَّم هو الودُّ الباطن، وإن كان سياق كلامه يدل على مقصوده، وهذا أوانُ تحرير هذه المسألة وهي من مُكمِّلات بيان سماحة معتقد الولاء والبراء.

ذلك أن الحُبَّ القلبي لغير المسلمين ليس شيئًا واحدًا؛ فمنه ما ينقض الولاء والبراء من أساسه ويَكْفُرُ صاحبُه بمجرَّده، ومنه ما يُنْقِصُ من الولاء والبراء ولا يَنقُضه؛ فيكون معصية تُنقِص الإيمان ولا تنفيه، ومنه ما لا يؤثر في كمال الإيمان وفي معتقد الولاء والبراء؛ لكونه مباحًا من المباحات.

أما الحبُّ القلبيُّ الذي يَنقُض الولاء والبراء وينفي أساسَ الإيمان: فهو حُبُّ الكافر لكُفْره، وأمّا الحبُّ القلبي الذي لا يصل إلى حدِّ النَقْض، لكنه يُنقِص الإيمانَ ويدل على ضعف في معتقد الولاء والبراء؛ فهو محبَّة الشخص كافرًا أو مسلمًا لفسْقِه أو لمعصية يقترفها؛ فهذا إثم ولا شك.

(١) أنوار البروق في أنواع الفروق، القرافي، (٤/ ٤٩٩).



ولكنه لا يصل إلى درجة الكفر لكونه لا ينافي أصل الإيمان؛ إذ لا يزال في المسلمين من يحبُّ المعاصي ويقترفها ولم يكفِّرهم أحدٌ من أهل السنة، وهذا الحبُّ قد يكون كبيرة من كبائر الذنوب وقد لا يكون كذلك؛ بحسب حال المحبوب ومعصيته.

فمن أحبَّ محبوبًا لارتكابه الكبائر فهذا الحب كبيرة، ومن أحبَّه لصغيرة يرتكبها فلا يزيد إثمه على إثم من ارتكبها؛ وهذا التقرير واضح الالتئام بَيِّن المأخذ بحمد الله تعالى.

وأما الحبُّ المباح: فهو الحب الطبعيّ؛ وهو الخارج عمَّا سبق؛ كحبِّ الوالد لولده الكافر، أو الوَلَدِ لوالدَيه الكافرَين، أو الرجل لزوجته الكتابية، أو المرء لمن أحسن إليه وأعانه من الكفار، فهذا الحُبُّ مباح طالما لم يؤثر في بُغضه لكفر الكافرين، وفسق الفاسقين، ومعصية العاصين، أما إذا أثَّر في بُغضه؛ فإنه يعود إلى أحد القسمين السابقين بما فيهما من تفصيل.

والدليل على أن الحبَّ الطبيعي للكافر لا يؤثِّر في كمال الإيمان لكونه مباحًا بالشرط الآنف ذكره: قولُه تعالى عن نبيه ﷺ في وصف حاله مع عمِّه أبي طالب الذي مات على الكفر: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص: ٥٦].

فأثبت الله تعالى على نبيه ﷺ محبَّة عمه الكافر، ولم يعتب عليه هذه المحبة ولا لامَه عليها؛ فدلَّ ذلك على عدم مخالفتها لكمال الإيمان، وأنَّى تخالفه وقد وقعت من أكمل الناس إيمانًا ﷺ؟!

الولاء والبراء بين الإفراط والتفريط

أخطأ فريقان في تعاملهما مع عقيدة الولاء والبراء؛ فالأول أفرط وغالى، والثاني فرَّط وجفا:

أما مظاهر غلو الإفراط؛ فتبرز في أمرين:

الأول: التكفيرُ بالأعمال الظاهرة التي تخالف موجبات الولاء والبراء؛ بسبب عدم فهم مناط التكفير في الولاء والبراء.

فقد سبق أن مناط التكفير في الولاء والبراء هو عمل القلب؛ فحب الكافر لكفره أو تمنِّي نصرة دين الكفار على دين المسلمين؛ هذا هو الكفر في الولاء والبراء، أمَّا مجرَّد النصرة العمليَّة للكفار على المسلمين؛ فهي وحدها لا يُمكن أن يُكَفَّر بها؛ لاحتمال أن صاحبها ما زال يُحب دين الإسلام ويتمنَّى نصرته، لكن ضَعْفَ إيمانه جعله يُقدِّمُ أمرًا دنيويًّا ومصلحة عاجلة على الآخرة.

ودليل هذا التقرير: قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه؛ عندما كاتب كفارَ مكَّة سرًّا، يخبرهم بعزم رسول الله ﷺ أن يغزوهم، وعلم النبي ﷺ بذلك؛ فأرسل مَن أخذ الكتاب مِمَّن خرج ليصل به إلى كفار مكة، ودعا حاطبًا، فقال له ﷺ: ((يا حاطب، ما هذا؟!)) قال: لا تعجل عليَّ يا رسول الله! إني كنتُ امرأ مُلْصَقًا في قريش، وكنت حليفًا لهم، لست من أنفسهم.

وكان مِمَّن معك من المهاجرين لهم قراباتٌ يحمون أهليهم؛ فأحببتُ إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتَّخِذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتي، ولم أفعله كفرًا، ولا ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام، فقال النبي ﷺ: ((صدق))، فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق!! فقال ﷺ: ((إنه قد شهد بدرًا، وما يُدريك

لعلَّ الله اطَّلعَ على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرتُ لكم))[١].

وقد صَرَّحَ شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أنَّ ما وقع من حاطب بن أبي بلتعة ذنبٌ وليس كفرًا[٢].

فدلَّ هذا الحديث أن النصرة العملية ذنب، لكنها ليست كفرًا وحدها؛ لأن ما وقع من حاطب نُصْرةٌ وليس حُبًّا، ومع ذلك لم يكن ذلك منه كفرًا؛ لأنه لم يكن عن تَمَنٍّ لنصرة دين الكفار على الإسلام.

الثاني: التطبيق الخاطئ للبراء من الكفار.

وذلك كاستباحة دماء الذِّمِّيين، أو المعاهدين، أو أموالهم، أو معاملتهم بغلظةٍ وعُنْف من دون سبب يُسوِّغُ ذلك إلا ادعاء أن هذا هو مقتضى الولاء والبراء، مع إن الرفق واللطف بهم هو المأمور به، بشرط ألَّا يَدُل على عُلُو الكافر على المسلم كما سبق، ولا شك أن تلك الأعمال من استباحة الدماء والغلظة والعنف ليست من الولاء والبراء في شيء، بل إن البراءَ منها براء! وقد تقدَّمَ بيان سماحة عقيدة الولاء والبراء، وعدم تعارضها مع ما أمرنا به الشارعُ من البر والإحسان للكفار غير المحاربين، ومن العَدْل مع المحاربين.

وإنما أُتي غلاةُ هذا المظهر من أحد أمرين:

الأول: انعدام النظرة الشمولية إلى أدلة الكتاب والسنة، التي مع وضوح

---

(١) رواه البخاري كتاب الاستئذان، باب من نظر في كتاب من يحذر على المسلمين ليستبين أمره (٥٧٨٩)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر ﷺ وقصة حاطب بن أبي بلتعة، (٤٥٥٠)، واللفظ لمسلم.

(٢) انظر: الإيمان الأوسط، شرح حديث جبريل ﵇، (٤٠٢، ٤٠٣)، ومجموع الفتاوى (٧/ ٥٢٢، ٥٢٣)، بل إن شيخ الإسلام مع تكفيره للتتار، قال عمن يقاتل المسلمين مع التتار (٦/ ٤٢٧): (وأيضًا لا يقاتل معهم غير مكره إلا فاسق، أو مبتدع، أو زنديق ...)، فها هو قد فصَّل أصناف المقاتلين معهم، ولم يجعلهم قسمًا واحدًا، ولم يكفر بمجرد القتال معهم.

عقيدة الولاء والبراء فيها؛ فقد أمرت بآدابٍ وأخلاقٍ نُعَاملُ بها غيرَ المسلمين، فيقتصرون على الجانب الأول مع إغفال ـ أو استشكال ـ الجانب الثاني؛ فيقودهم ذلك إلى تطبيق خاطئ للبراء، لا يُقِرُّهم عليه دينهم؛ لأنهم انطلقوا في تطبيقهم للبراء بغير قيدٍ أو ضابط.

الثاني: عدم مراعاة فقه المصالح والمفاسد؛ بأن درء المفسدة مقدَّم على جَلْب المصلحة، وأنه تُدْفَع أشد المفسدتين بأخفّهما.

وفقه المصالح والمفاسد باب عظيم جدًّا من أبواب الفقه الإسلامي، بل لقد قامت الشريعة كلها عليه؛ ولذلك فإن إدراكه والتطبيق الصحيح له ليس في قدرة أكثر الناس، وإنما هو باب لا يلجه إلا العلماء الربانيون الفقهاء في دين الله تعالى.

ولغُلوِّ التفريط مظهران:

الأول: مهاجمة عقيدة الولاء والبراء والمطالبة بإلغائها؛ بحجة أنها تؤصل ثقافة الكراهية للآخرين وتؤجج نار التطرُّف والغُلو.

وهؤلاء إن قصدوا الولاء والبراء الذي ورد في تلك الآيات، والأحاديث النبوية، وأجمعت عليه الأمة، وكان من أمور الدين المعلومة منه بالضرورة؛ فهذا خلل عظيم يمس أصول الإسلام، وإن قصدوا الولاء والبراء الخاطئ، الذي هو مظهر من مظاهر غلو الإفراط فيه فليس من الإنصاف أن يُحمَّل هذا المعتقد الصحيح جَريرة خطأ المخطئين فيه، ولا أن نقابل غلوَّهم بغلوٍّ في الطرف الآخر.

الثاني: مهاجمة مظاهر الولاء والبراء الشرعية الصحيحة، ومحاولة تذويبها بإشاعة عادات الكفار وتقاليدهم بين المسلمين.

لقد كان لعقيدة الولاء والبراء في نصوص الكتاب والسنة ذلك الحظ الوافر،

الذي لا يكاد يغلبه وفورًا ووضوحًا إلا نصوص التوحيد.

وشرع الله لنا أحكامًا كثيرةً مبنيّةً على النهي عن التشبُّه بالكفار، بل على الأمر بمخالفتهم وذلك أيضًا في نصوص وافرة، وصنّف العلماء في ذلك كتبًا عديدة قديمًا وحديثًا، وما هذه الأحكام الإلهية إلا لغرض ترسيخ البراء من الكفار في قلوب المسلمين، ولجعله واقعًا عمليًّا ومعنىً حيًّا في المجتمع المسلم.

حيث إن المعتقَد إذا لم يكن له واقع في الحياة؛ فإنه لا يعدو أن يكون أفكارًا جوفاء وخيالات ليس لها أي ثمرة، فتطبيق مظاهر الولاء والبراء الصحيحة؛ شرع لا مناص من التزامه والعمل به، وإلا شابهنا اليهود الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض؛ فكيف يرضى مسلم لمجتمعه أن يذوب في المجتمعات الأخرى وأن ينخلع من حضارته وتاريخه؟! هل هذا من صدق الانتماء لأمتنا؟!

ويجدر بنا هنا أن ننبه على أمر مهم نبه إليه العلامة القرضاوي حين قال: (هناك من يستغل فكرة التسامح؛ هادفًا إلى تمييع الأديان، وحَلِّ عُرى الاعتزاز بها، والالتفاف من حولها، وإطفاء حرارة الإيمان الديني بدعوى التسامح أو الوطنية أو القومية أو غيرها من المفاهيم.

نحن دعاة تسامح؛ لأن ديننا نفسه يأمرنا به، ويدعونا إليه، ويربينا عليه، ولكن ليس معنى التسامح أن نتنازل عن ديننا؛ إرضاء لأحد كائنًا من كان؛ فهذا ليس من التسامح في شيء، إنما هو إعراض عن الدين أو كفر به؛ إيثارًا للمخلوق على الخالق وللهوى على الحق، ونحن لا نلزم غيرنا بترك دينه حتى يطالبنا بترك ديننا.

ليس من التسامح أن يُطلَب من المسلم تجميد أحكام دينه، وشريعة ربه، وتعطيل حدوده، وإهدار منهجه للحياة؛ من أجل الأقليات غير المسلمة؛ حتى

لا تقلق خواطرها ولا تتأذى مشاعرها.

ولا أدري ما الذي يقلق المسيحي أو اليهودي من قطع يد السارق مسلما كان أو غير مسلم، ومن جلد القاذف، أو الزاني، أو السكير، ومن غير ذلك من الأحكام والحدود؟ إن المسلم يتلقى هذه الأحكام على أنها دين يتعبد به ويتقرب إلى الله تعالى بتنفيذه، وغير المسلم يأخذها على أنها قانون دولة ارتضته أغلبيتها.

ليس من التسامح في شيء أن تقوم العلاقات ـ بين المسلمين والمسيحيين مثلًا ـ على النفاق الزائف المكشوف الذي يعلي الرابطة الوطنية أو القومية على الرابطة الدينية، مع مخالفة هذه الفكرة مخالفةً صريحة لما في الإسلام والمسيحية معًا، إنما ينبغي أن يقوم التسامح على ما أمر به الدينان من حسن الجوار، وحب الخير للجميع، ووجوب العدل مع الجميع.

والقول الذي يردده دعاة الوطنية العلمانية: الدين لله، والوطن للجميع؛ قول لا معنى له، ويمكن أن نقلب هذه العبارة على كل الوجوه؛ فنقول: الدين لله، والوطن لله، أو الدين للجميع والوطن للجميع، أو الدين للجميع والوطن لله؛ فلندع هذه العبارات الرجراجة، التي لا تعطي مفهومًا محددًا، ولا تحل إشكالاً، أو تقيم حجة.

ليس من التسامح في شيء أن نذيب الفوارق الأساسية بين الأديان؛ فيتساوى التوحيد والتثليث والناسخ والمنسوخ؛ فمثل هذه الأفكار تأتي بعكس ما يراد منها؛ ولهذا تبعِّد ولا تقرِّب، وتفرِّق ولا تجمِّع، وتهدم ولا تبني، إن كل دين له مقوماته الجوهرية وخصائصه الذاتية؛ فلا يجوز إغفال هذه المقومات والخصائص من أجل مجاملات سطحية، أو كسب معارك وهمية)[1].

❁❁❁❁❁❁❁

(١) غير المسلمين في المجتمع المسلم، د.يوسف القرضاوي، ص(٨٧-٨٨).

الخاتمة

إن تقرير التصور الصحيح لمعاملة أهل الكتاب في داخل المجتمع المسلم؛ أمر له خطورته وأهميته التي لا تخفى على كل عاقل؛ إذ أن له تأثير خطير ومباشر على استقرار بلاد المسلمين وتماسك بنيتها الاجتماعية، وقد اتضح من خلال هذا البحث أن هذا التصور يقوم على جانبين أساسيين:

الأول: تسامح الإسلام مع أهل الكتاب ومجادلتهم بالتي هي أحسن.

الثاني: المحافظة على عقيدة الولاء والبراء.

وأما الإفراط أو التفريط في أحد هذين الجانبين على حساب الآخر؛ فليس من دين الله تعالى في شيء.

فلا يجوز أبدًا أن نهدم أصل التسامح مع غير المسلمين من أهل الكتاب، بحيث يكون الأصل في معاملتنا لهم: الشدة والقسوة والغلظة؛ بحجة تحقيق الولاء والبراء وأن ذلك من لوازمه، مع أن النصوص التي تأمر بمعاملتهم بالرأفة والسماحة والرحمة كثيرة وظاهرة، وحقوقهم في شرع الله تعالى محددة معروفة، بما يكفل لهم كرامة العيش في بلاد المسلمين، وعدم التحول إلى طابور خامس يعطي ولاءه لأعداء الأمة.

كما لا يجوز في مقابل ذلك أن نهدم أصل الولاء والبراء بحجة التسامح مع أهل الكتاب؛ إذ إن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، وهو ناسخ لما قبله من الشرائع السماوية.

والمسلم عند الله ﷻ لا يقارَن بغيره بأي حال من الأحوال؛ فهو أعز وأكرم بما معه من إيمان وإسلام، ولكن مع ذلك؛ فلكل من الطرفين حقوق وعليه واجبات، لا بد أن يؤديها كما أمر شرع الله ﷻ.

ولا شك أيضًا أن على أهل الكتاب في أرض الإسلام واجبات، كما أن لهم حقوقًا، فلا بد لهم من الالتزام بالقوانين الشرعية في بلاد الإسلام إلا ما أعفاهم شرع الله ﷻ منه.

وعليهم كذلك أن يراعوا مشاعر المسلمين في كون هذه البلاد بلادًا إسلامية؛ فلا يجوز منهم المجاهرة بما يخالف أحكام الإسلام جهارًا عيانًا، حتى ولو كان ذلك مباحًا في شريعتهم، كالمجاهرة بشرب الخمر وأكل لحم الخنزير وغير ذلك.

وأما إذا حدث منهم ظلم أو تعدٍ؛ فلا بد لمن بيدهم مقاليد الأمور والمسئولين في بلاد الإسلام أن يأخذوا على أيديهم وأن يمنعوهم من ظلمهم؛ حتى لا يشعر المسلم أنه مهان في أرض الإسلام، وأن عليه واجبات بينما ليست له حقوق؛ فيحدث من ذلك فتنة لا يعلم مدى شرها إلا الله ﷻ.

ولا شك أيضًا أن بلادنا لم تكن في حاجة إلى تطبيق ذلك التصور الكامل المتوازن للتعامل مع غير المسلمين في المجتمع المسلم بقدر حاجتها إليه في تلك الأيام؛ التي تكالبت فيها كل قوى الشر على بلاد الإسلام، تقتطع كل يوم جزءًا جديدًا من أراضيها، متذرعة بذرائع وهمية، ما أنزل الله بها من سلطان، تأباها حتى القوانين الدولية، فضلًا عن الشرائع السماوية.

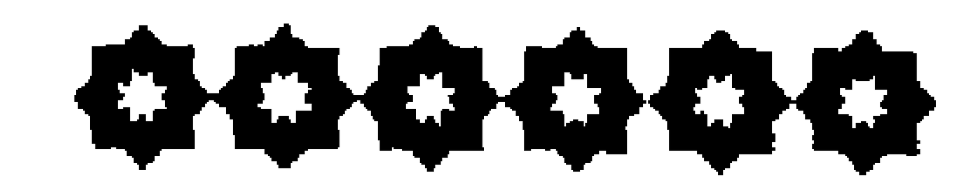
ولا زالت تلك القوى تتربص بهذا الوطن؛ لما له من مكانة هامة على مدى التاريخ في كل الأحداث العظمى التي جرت في تاريخ المسلمين.

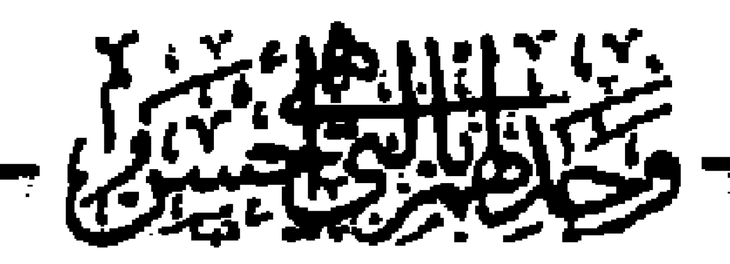
والتمسك بهذا التصور الحكيم الذي شرعه الله هو العاصم الوحيد ـ بعد الله ﷻ ـ من أي فتنة تحدث في بلادنا تعطي مبررًا وذريعة للأعداء للتدخل في شئوننا، بما يسهم في تحقيق مخططاتهم ضد بلاد العرب والمسلمين.

ونهيب بالجميع أن يلتزم كل منهم بما له من حقوق وما عليه من واجبات، وأن يعمل دومًا على تقوية الجبهة الداخلية، والمحافظة على تماسك البلاد؛ ففي ذلك خير الجميع بإذن الله تعالى؛ لأننا جميعًا في سفينة واحدة، بغرقها يغرق الجميع.

فلا بد لنا إذًا من المحافظة على سفينة المجتمع، وإلا فستكون فتنة تأكل الأخضر واليابس، ولن تكون أبدًا في مصلحة أي من الطرفين، مسلمين كانوا أو كتابيين.

نسأل الله تعالى السلامة والعافية لجميع ديار المسلمين، والله تعالى من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.





الفهرس



٢٦ شارع ٣١٤ تقسيم القضاة سموحة
الاسكندرية
www.dar-alhoda.com
ت: ٠٣٤٢٠٥١٢٩ /٠١٠٣٤٥٦٨٥٢ فاكس: ٠٣٤٢٠٥١٢٩

